
رواية
أكتبُ إليكَ مِنْ دِمشق
محمود عبد الغني
مدونة ابو عبدو
دار العين للنشر

5579

أكتب إليك من دمشق

أكتب إليك من دمشق

رواية

محمود عبد الغني

الطبعة الأولى / ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م



دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: فرانكشتاين

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٥/٢٧٣٦٧
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 362 - 5

أكتب إليك من دمشق

رواية

محمود عبد الغني

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبد الغنى، محمود

أكتب إليك من دمشق: رواية/ محمود عبد الغنى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٦

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٣٦٢ ٥

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٧٣٦٧ / ٢٠١٥

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۞ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾

سورة "عبس"، 15 و 16.

"الخط الحسن يزيد الحق وضوحا"

علي بن أبي طالب

قال ابن عبّاس في قول الله تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي كاتب حاسب.

1

وقفة بين الفصول: حبّذا العيش في دمشق إذا ليلها برد

"جنان الدنيا ثلاث: غوطة دمشق، ونهر سمرقند، ونهر الأُبُلّة".

الأصمعي

"في الدنيا ثلاث جنان: مرو من خراسان، ودمشق من الشام، وصنعاء من اليمن. وجنة هذه الجنان صنعاء".

محمد بن عثمان

"وذكر بعض العلماء المغاربة قال: قال قوم من المشرقيين: إن الله أسكنه - يعني آدم - بناحية كيكدر من كورة الصين، قال وهي التي تعرف في زماننا بمدينة لغبور، ويقولون: الصين أطيب البلاد، وأما الذي عليه العامة في الشق الغربي أن أطيب البلاد صنعاء من اليمن، ودمشق من الشام، والري من خراسان، ونجران من الحجاز".

ابن عساكر



هكذا هي الأشياء في القرن الثاني عشر، وربما هي كذلك حتى في القرون السابقة.

هكذا تحدث وهكذا تكون خواتمها. النور يصلك بوضوح كبير، والطرق تنيرها النصائح والصلوات. أمسكني الحافظ بن عساكر، مؤرخ دمشق، من يدي وسحبني من فاس إلى دمشق. فانتزعت تلك اليد من عقلي أفكارا وكلمات وصفت تلك الأفكار بوضوح مبهر. قطعت الطرق والمسافات دون صعوبات كبيرة. كانت الظلال التي تحيط ببلاد المسلمين مخيفة وتتحرك كالأشباح، وتغير أمكنتها ومواقيتها. وحين تظهر من جديد، وسط الضباب وارتجاج الأراضي، تكون عازمة على إنهاء كل شيء. لكن، وهذا هو العجب، كانت تلك الظلال هي من زاد من صفاء الرؤية، ووسّع من انتشار النور.

فجأة وجدتني أمام رجل يتنفس بعمق. ذلك هو الانطباع الذي منحتني إياه تلك الزيارات غير المتوقعة إلى ابن عساكر وهو يملي

كتبه في المسجد الأموي، وهو في بيته، رفقة زوجته وأبنائه، وهو رفقة أصدقائه وتلاميذه من الشام والعراق، وأخيرا وأنا أودعه، دون موافقته على مغادرتي دمشق رفقة العراقي "سنان".

كانت مهمتي الأولى هي نسخ ثمانية مجلدات من كتابه الضخم الذي يقع في عشرين مجلدا: "تاريخ دمشق". كانت تلك هي المرة الأولى التي أشعر فيها أنني أنظر إلى الأمام وليس إلى الخلف كسابق أيام حياتي. ساعدني ذلك على اتخاذ قرارات، عديدة لم أكن لأجرؤ على اتخاذها في السابق، وبكثافة لم يكن عقلي وجسدي يتحملانها.

تجمعت في يدي كل الأوراق الرابحة. كنت في فاس أعمل وأعيش، وفجأة وجدتني أسير في ممر قادني وأدخلني إلى عالم آخر. وإني أعترف منذ الآن بأن حكايتي ستكون موجزة مهما اتسعت وامتدت كلماتها وصفحاتها. وعندما سألتني رفيقة قلبي "أم العيد" حال عودتي من أم الشام إلى فاس:

- حسنا، ما هو الانطباع الذي تركته فيك دمشق ومؤرخها الشهير صاحب التاريخ الكبير "تاريخ دمشق"؟ أحسست بطعم الحكايات اللذيذة على لساني. وشعرت بأنني سأحكي عن مدينة وشخص أكثر اتساعا من المألوف. فبدأت حكايتي قائلا:

- طيب، هاك ما حدث، ما سمعت، ما رأيت وما حلمت به. هاك ما أخافني وما أسعدني.

أدركتُ أنها ستصدق كل ما سأرويه، وأنني بعيد كل البعد عن تلفيق الحكايات كما يفعل العائدون من أسفار بعيدة. حاولت الانتصار على نفسي وأنا أحكي الوقائع، فالنفس كثيرا ما تتوق إلى رواية أشياء لم تحدث، واللسان والذاكرة، يا للعجب، يطاوعانها.

أما فيما يخص ابن عساكر، فليس بمقدوري أن أقدمه دفعة واحدة، فالرجل من النوع الذي لا يُكتشف شخصه وعلمه وطباعه إلّا مع المعاشرة والمصاحبة. فهو مؤرِّخ يفرح بكل ما بين يديه من وثائق ومرويات ومشاهدات. وهذه لوحدها ثروة هائلة، كما كان يردِّد أمامنا وهو يضع أصبعه على صدغه ثم ينقله إلى قلبه. العقل والقلب، هذان هما توازن الوجود. كما أنه من الصارمين في مسألة السؤال، فأن تسأل بالنسبة إليه هو أن تجيب على السؤال أيضا. أما عندما تكون جاهلا بعناصر الجواب فلا داعي لأن تسأل. وعندما أفكر فيه اليوم، وانا في فاس بين اهلي وجدران مدينتي، أسأل نفسي: ما الذي دفعني إلى العودة؟ وهو سؤال أطرحه ليس بالكلمات ولكن بأبجدية آلام في الرأس وأوجاع في القلب.

لو لجأت إلى الكذب وتلفيق الحكايات لهان الأمر عندي، وكان أبسط من كل ذلك التعقيد والألم. لكن لا بد من الجواب عن سؤال:

لماذا يذهب رجل في سنّي، وينتقل من موقع معروف على الخارطة إلى موقع آخر ساخن اسمه مدينة دمشق، ويبدأ في البحث عن رجل اسمه ابن عساكر ليساعده، رفقة آخرين، في نسخ كتاب يقع في ثمانين جزءا عنوانه "تاريخ دمشق"، هو الكتاب نفسه الذي نعرفه في المغرب بعنوان آخر هو "التاريخ الكبير"؟

لن تموت تلك الذكريات، لن تذوب تلك الرحلات والانتقالات من مكان إلى مكان، وتلك الارتجاجات. كل شيء من زيارتي لدمشق سيبقى حيّا داخلي، في نسيج نفسي وكياني.

إن تلك الذكريات لم تمضِ، حتى رغم انفصالي عن الأمكنة والأشخاص. لن أقف منها، ولن تقف هي مني، موقف الأغراب. لقد أصبحت لي قدرة غريبة على التذكر فاقت قدرة الناس على التذكر في القرن الثاني عشر. فتولّدت في داخلي قناعة بأن النسيان افتراض باطل، أو أنه في أحسن الأحوال، وعلى أحسن تقدير، حقيقة نصف صحيحة.

بالتدريج، ومع مضي شهر بعد شهر ظهرت قدرات ذاكرتي. فبدأت أحدّث الأشخاص الذين التقيت بهم في دمشق أو بغداد، والذين لا أعرف شيئا عن مصيرهم اليوم، وكأنهم انتقلوا معي إلى فاس، ويا ليتهم فعلوا لحافظوا على حياتهم التي رأيتهم يحاربون من أجلها، حين كان الموت يتربّص بكل واقف وجالس ونائم ومتيقظ.

فبقيت أحدثهم وكأنني أستجوب نفسي. أقلّد أصواتهم وطرق حديثهم وجلوسهم وتفكيرهم ولباسهم. ناس استمروا معي بطريقة مذهلة. فكنت ألاحظ تحوّلا في صوتي وفي لهجتي، وحتى في لغتي. فحين أقلد شخصا كان يخطئ في النحو، أخطئ مثله. لهجات كثيرة سمعتها ونجحت في تقليدها. اللهجتان الشامية والبغدادية هما أعذب ما سمعت. وحين عدت إلى فاس بقيت أتحدث بهما لأنهما فاقتا لهجتي المغربية أدبا وتودّدا وظَرَفا. وتلك الأماكن التي حكيت عنها سيجدها الناس في مكانها وعلى نفس هيأتها ولو بعد مرور قرون. والحروب والنزاعات ستبقى لقرون قادمة إلى أن تستوي الكائنات. ستقع كما وقعت في ذلك القرن المرعب، ولنفس الأسباب المتداخلة والمختلطة.

لكل ذلك، أنا شديد الحزن على الناس في القرون القادمة. سيقتتلون فيما بينهم، وسيتفرج عليهم العالم وباقي الأقوام الأخرى. ستُسلب منهم أراضيهم ونفوسهم وثرواتهم وكتبهم الفائضة بالعلم والعطاء. ومن سيكتب تاريخ المدن، كما فعل ابن عساكر، سيكتب بحيرة عن أشياء عجيبة لم يكن أحد ليتخيّل أنها ستقع في مدينته وبين ناسه.

كنت مهددا بالاغتراب عن نفسي حين هجرت الأمكنة الساخنة في دمشق وبعدها بغداد. فأنا اليوم أتذكر كل شيء قمت به، كل شيء

أصابني في المساجد والمنازل والمارستانات والفنادق والطرقات والأزقّة. إنني أتذكر نفسي، وهذه هي المهمة التي أخذت على عاتقي من دون سابق تصميم أو تخطيط، بل وحتى من دون مهارة.

أتذكر على الخصوص اللحظة التي اقتُرح عليّ فيها السفر إلى دمشق للعمل مع ابن عساكر وفريق من الناسخين في نسخ أجزاء من "تاريخ دمشق". كانت لحظة احترمت فيها كثيرا إرادتي، نفسي، عقلي، يدي، قلمي، أوراقي، أدوات عملي الكثيرة والمتنوعة التي صرفت عليها الكثير من المال، كأنني دون وعي منّي كنت أعدُّ العُدّة لهذا اليوم.

بدأ ميلي إلى العمل يتزايد. كنت أشعل النور في عز النهار، وأغلق غُرفتي وأتمدد فوق سريري وأبدأ في رسم خارطة دمشق وملامح ابن عساكر. ومن غريب الأمور أنني انتبهت إلى أن اسمه له علاقة بالحروب. فبدأت أعصابي المصقولة تشتدُّ، وهي نفس الأعصاب التي ستنزف كثيرا في ليالي دروب دمشق وبغداد. ركّزت انتباهي على اسم الحافظ، واعتبرت "ابن عساكر" مجرد كناية عابرة، إشارة غامضة من العقل حين يكون مشوَّشا ومزدحما بالأفكار والاستعداد المتوتّر. وأشدّ ما أثارني هو عدد أجزاء كتابه "تاريخ دمشق": ثمانون جزءا. أنا هنا أمام عقل كبير ونفس وَرِعة، مطواعة ومجالدة.

وأنا في السرير رفعت عينيّ إلى السماء بحثا عن الشمس وتساءلت: هل هي نفس شمس دمشق؟ نفس الضوء الذي يراه ابن عساكر وهو يستيقظ للصلاة في الفجر ثم يودّعه في الغروب؟ ثمانون جزءا سيكون نصيبي منها عشرة مجلدات أو ربما أكثر، فيما سيتقاسم الأجزاء الأخرى ثمانية نُسّاخ آخرين جاؤوا من عدّة بلدان، لكن أغلبهم من الشام والعراق. سيكون عملي هذا وقفة بين الفصول والتواريخ والجغرافيات والبشر.

لكن ما لم أفهمه جيدا هو تلك العلاقة غير الواضحة والبرّاقة بين الحافظ ابن عساكر وبين الناسخ العراقي المتقاعد "سنان". كنت أجده مرارا في بيت الحافظ، لكنهما لا يتحدثان في أمور النسخ والوراقة. فهل كان مؤرخ دمشق يحاول إقناع سنان بالعودة إلى مهنة النسخ والمشاركة معه، أو على الأقل أن يشرف على الفريق الذي سيعمل على نسخ الكتاب؟ لقد كان سنان محبوبا عند الحافظ، غير أنه يكتفي بتعليل تلك الحظوة بكون الحافظ أقام عنده في بغداد عندما زار العراق والبلدان المجاورة، فتكوَّنت بينهما رابطة قوية.

***

ليس هذا مكان الشك والتراجع، ولا أوانه. ففي فاس، كل الناسخين في فاس، وكل الوراقين، علموا بعملي على نسخ أجزاء من "تاريخ دمشق". وعليّ أن أستعدّ لأسئلتهم عن دمشق وابن

عساكر. لقد كان اسمه يتردد في الدروس التي تُعطى في المساجد، وفي إملاءات الكتب المليئة بالاستشـهادات والاقتباسـات. الحافظ ضوء، سراج دائم الإنارة. عليّ أن أتحدث عنه وعن كتبه وحياته. لقد اقتربت من حياته في كل يوم، وعرفت عنه الشيء الكثير. وهي معارف اكتسـبتها منه وعليَّ نشـرها هنا في فاس، وذلك أضعف الإيمان. هذا ما تحققت بداياته الأولى ذات صباح وأنا أتناول وجبة الفطور مع ضيوف جاؤوا لزيارتي حين علموا بعودتي من دمشق وبغداد، بعد أن شـاع خبر موتي، أو قد يُقال استشهادي في غمرة الهجومات الغادرة التي كانت تتعرض لها دمشق.

زائري، عبد اللـه الصفري، قال لي إنه شاهد بعينه وبخياله كل ما رويته له عن رحلاتي. وكان في كل مرّة يصاب فيها بالدهشة يقوم ويمسك يدي ويطلب تفصيلا صغيرا، تاريخا أو اسمَ شخص أو مكان أو مسجد أو كتاب. وكنت أجيبه بسعادة لا نظير لها لأنه كان فعلا يسأل عما يجب السؤال عنه. كنت أنا نفسي أصاب بالدهشة لما رأيته وعشته وأنا منهمك في رواية ما رأيت وعشت باندفاع وكفاءة فطرية.

كان عبـد اللـه منهمكا تلـك الأيام في تلخيـص كتاب عنوانه "التهذيـب". وقد كانت له معرفة واسـعة بجوانب كثيرة في عالم النسخ والوراقة. لكنه كان يريدني أن أنسخ هذا الكتاب بخطّي. كما

كان بارعا في كيفية تركيب وصناعة الألوان. وكان يشرح لي ذلك فكنت أستفيد منه الشيء الكثير. وأنا لا أستطيع أن أرفض له طلبا بخصوص رواية ما شاهدته في الشام.

لا أنسى أنه أفادني كثيرا في خلط الألوان. كان يفسر لي الخلطة ثم يعيدها مرات ومرات. وأذكر على الخصوص ليلة وصف لي صفة مداد إذا كتبت به على النحاس تخرج الكتابة كالفضة البيضاء، وهي وصفة يستعمل فيها ماء الباذنجان. وقد ضحكنا كثيرا تلك الليلة حين كنا نحصي أنواع الماء التي يخلط بها المداد، ووصلنا إلى فقرة غاية في الغرابة خاصة بمداد يُسحق فيه الزبيب ببول الصبيان لصناعة مداد يُكتب به على الذهب والفضة، وإذا قرّبته من النار تظهر فيه الكتابة خضراء كأنها الريحان. كان عبد اللـه الصفري يضحك قبلي وهو يصف خلطة هذا المداد الغريب. وهكذا قضى معي عدة ليال بكمالها وتمامها في شرح وتفسير وأعمال يدوية غاية في التشويق، ولسان حاله يقول: لابدّ أن تذهب إلى أهل الشام مسلّحا بمعرفة واسعة في صناعة الأحبار، فالشاميون بلغوا درجة عليا في هذا الشأن. وكنت أوافقه وأجاريه بمجاملة غير ظاهرة، لأن صناعة الأحبار أمر يحتاج إلى تدريب خاص وإلى سنوات كثيرة، وهو أمر ليس لي. لكنني لا أنكر أنني، بمساعدته، تقدمت خطوات إلى الأمام، وفُتحت أمامي أبواب كانت مغلقة من قبل، ولم يستطع أحد فتحها غيره.

كنت عندما أتعب وأريد إنهاء حصة التدريب والتلقين أقول له:

- أنا ذاهب يا رجل لنسخ كتاب "تاريخ دمشق" وليس للكتابة على ذهب وفضة ونحاس الملوك.

وكان يردُّ وهو يبتسم:

- هل تريد أن تتعلم كيف تصنع حبرا من الحمّص أو قشور الرمان؟ إنها خلطة كوفية خالصة يُصنع منها مداد جيد.

كنت أعرف أن عبد اللـه ينهل من مخطوط كتاب يراجعه ويحفظه سرّا، لكنني تحاشيت أن أطلب منه أن يزوّدني به في رحلتي، وكان هو يحدس معرفتي بهذا الأمر فكان يصمت خاتما الجلسة:

- لنترك شيئا يُقال في المرة القادمة.

وكنت أسأله باستغراب:

- أيّ ليلة قادمة؟

- ليلة يوم غد.

لم أجد أحدا يسأل ويلحُّ في السؤال أكثر من عبد اللـه. وكثرة أسئلته وإلحاحه على التفاصيل تنبئني بأنه يطمح إلى السفر إلى دمشق، في الشام، وإلى بغداد، في العراق. وكنت أقول له إن الشاميين والعراقيين سيفرحون أيما فرح بمهندس الحبر الكبير.

وكان يضحك كعادته في مثل هذه المواقف التي تقال فيها عبارات الود والحب، فكنت أرى سحابة سوداء تنسحب من سماء نفسه.

حكيت لأم العيد ولعبد الله، من بين زائرين كُثّر كانوا يأتون للاطمئنان عليّ، ولسماع الحكايات عن بلدان بعيدة كانوا يسمعون عنها أشياء تشبه الأساطير، فوجدوا حكاياتي ومروياتي تقترب من قصص أيام عصيبة عاشها ناسخ من فاس في الشام والعراق. ليس كل الشام، وليس كل العراق. فكانوا يجتازون عتبة الباب نحو الخارج وهم متأكدون بأنني أخفيت عنهم أشياء كثيرة، وتركتها وراء حجاب كان من نسيج قضايا النسخ والوراقة. فضلت أن أحكي لأم العيد، لشدة تشوّقها وحُسن استماعها، عن نساء شهيرات قَدِمن دمشق ودفنّ بها. وذلك عندما لاحظت خفوت حماسها للإنصات إليّ ومتابعة ما أرويه، خصوصا عندما طلبت منها أن تُنصِتَ إلى حكاية ذلك اليوم الذي كدت أموت فيه من العطش وأنا أبحث عن المدينة التي يوجد فيها قبر بلال. وقد وجدت أن الناس يختلفون في مكانه. وسمعت من الحافظ ابن عساكر أجوبة عدة حين قال: "لقد اختُلف في قبر بلال، قيل إنه في "باب الصغير"، وقيل في "باب كيسان"، وقيل في "داريّا"، وقيل إنه في "حلب"، وهو قول ضعيف". وحين سألته عن رأيه، أجاب: قبر بلال في "باب الصغير". وهذا ما أثبته في نهاية الجزء الثاني من "تاريخ دمشق"، ذلك أنه أعطاني ثمانية مجلدات متفرقة للنسخ هي: الثاني، والسابع

عشر، والعشـــرون، والخامس والخمســـون، والحادي والستون، والثالث والرابع والسبعون، والثمانون.

لكن ما شـــدّ انتبـــاه أم العيد هو كثرة النســـاء العربيات اللواتي زرن دمشـــق وفضّلن الموت فيها، خصوصا حكاية ســـكينة بنت الحســـين التي قدمت إلى دمشق وماتت فيها، فلما علم والي المدينة بوفاتها أمر أن لا يدفنوها حتى يحضرها، فركب إلى بعض أمواله بنواحي المدينة، وكان اليوم حارّا، فتغيرت رائحة جثمان ســـكينة المسكينة، واشـــتُري لها طيب كثير ليغلب الرائحة فلم يغلب. ومن الســـخرية والاســـتخفاف أن بعث الوالي إلى مأموريه أن "ادفنوها فإني مشـــغول"، فدفنـــت دون أن يحضر بعـــد أن أخّر دفنها. لكن الحافظ شكّك بوجود قبرها في دمشق، ويؤكد أنها ماتت بالمدينة.

قبور كثيرة في دمشق، منها الصحيح ومنها الوهمي، لكن الناس يزورونها، وكأنهم يزورون الحكاية والمأساة وسخرية القدر الذي فعل ما فعله بالناس. أما الجسد فحيثما وُجد، ليس مهما ذلك. وبما أن الموت مرتبط بالمساجد، التي أصبح الناس يُقتلون فيها، سألني العديد من الناس عن صحة وجود الرخام في مسجد دمشق. فقلت لهم إنني زرته وصليت فيه واستمعت فيه لدروس أو أمالي ألقاها الحافظ به، وسمعته يقول إن الرخام الوحيد الموجود فيه هما رخامتا المقام، ويقال إنهما من عرش سبأ، وأما الباقي فكله مرمر. والحقيقة

أن الداخل إلى المسجد يصاب بدوخة من النوع الذي يحدثه الجمال. لقد أنفق الوليد بن عبد الملك الشيء الكثير من أموال الناس في بناء المسجد. وفعلا استنكر الناس أن تُبذَّر أموالهم في نقش الخشب وتزويق الحيطان. خصوصا وأن دمشق مدينة مهدَّدة بحروب كثيرة وبخراب لا شكّ أنه قادم اليوم أو غدا. فأول ما يستهدفه العدوان هو المساجد، إما لقيمتها في نفوس الناس، وإما للأموال التي صُرفت في بنائها، وإما لاختباء الناس بها حين تشتد الحرب ويكثر الدم ويرخص، وتبدأ الملل والنحل والطوائف في الاقتتال فيما بينها. أما الإفرنج فسيخرِّبونها لأنها كانت في الأصل كنائس هُدّمت أو أُحرقت أو سُلبت منهم. وفعلا، لقد ذاق الناس شظف العيش وبؤس الحال حين حُبست عن الناس الأعطيات وحُبست عنهم حقوقهم، عندما شُرع في بناء المسجد. وقد صبر الناس على ذلك في سبيل مفخرة من مفاخرهم الكبرى، وقبلة أرواحهم وقلوبهم. وهناك من أحصى المال الذي أنفق على مسجد دمشق وحصره في أربع مئة صندوق، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار. هذه هي إحصاءات عمرو بن مهاجر، وهو ثقة. لكن يا للخسارة، مكان بهذه القيمة وهذا الجمال تُرتكب فيه الجرائم؟ لقد أريق دم على الحيطان المنقوشة، والخشب المزوّق، ووصل إلى الكرمة التي في قبلة المسجد.

لهذه الأسباب هربت مع العراقي سنان إلى بغداد. لقد هرب قبلنا الأمان والسلم والطمأنينة. قرأت كثيرا من ذلك الخوف العظيم،

والتنبّؤ الخطير بخط الحافظ، سواء في المجلدات التي كلّفني بنسخها أو في مجلدات أخرى عند ناسخين آخرين. لقد كان يقرأ قادم أيام أمّ الشامّ. ووجدت كم أن واقع الحال يناقض تماما وكليا ما قيل فيها من أفواه مؤلفي الكلام الحسن:

ليس فـــي الدنيا نُعيمٌ   غير سُــكنى في دمشق
تنظـــر العينان منها   منظـــرا ليـــس لخلـــق
جنـــة يفجـــر منها   مـــاء عيـــن ذات دفق

ويُناقض أيضا ما قاله المأمون فيها: "عجبت لمن سكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الأنيق الذي ليس يخلق مثله". يا ربي، مالهم أقسموا على تدمير كل ذلك الجمال الذي ليس لمثله جمال.

وكل استغرابي هو من حماســتي للذهاب إلى هناك، رغم عدم موافقة أمّ العيد، التي كانت كمن قرأ كل شيء قادم. لكني خوفا من مصارحتها بالسفر إلى دمشق تركت لها هذه الرسالة التي احتفظت بهـــا، معتقدة أنها تحتفظ بآخر أثر منـــي، وأرتها إليّ بعد عودتي. كنت وحيدا تلـــك الليلة الباردة وبدأت أفكر فيهـــا. هي التي كانت دوما تردد أنهم ســيجدونني بين الأوراق والكتب غير المنسوخة. ماذا كانت تقصد، هي التي لم تنســخ ورقـــة واحدة في حياتها؟ بل كانـــت تكتفي فقط بإحضار كؤوس الشـــاي والماء وإضافة الزيت

إلى القناديل حتى تبقى مضيئة عند رأســـي، وأنا منهمك في النسخ وترتيب الأوراق والكتب التي تســتولي علـــى خزانتي وموائدي. كانت تجلس لبعض الوقت ثم تنهض دون إتمام حديثها الذي عادة لا يتجاوز أن يكون مجموعة من الأخبار عن ما يجري حولنا، أو أمرا بإحضار حاجيات ومواد للبيــت. أذكر جيدا وجهها وهي تحدثني. يشــبه ملايين النســاء وهن يتحدثن عن تمنياتهن ورغباتهن. وفي أوقات أخرى تبدو مثل ملايين النســاء المنشغلات بأزواجهن. وما أن تشــعر بانزعاجي وبأنها تهدر وقتي تنتقل إلى الغرفة الأخرى، تاركة الزوج المريض بالنســخ مع مخطوطاته "السخيفة"، مدركة أنني أحتاج كل عقلي أثناء العمل.

أم العيد، يا حبيبة القلب،

هل كنت تظنين أنني سأرفض هذه الدعوة؟ كل شيء سيبدأ من هنا. هذا هو الفجر الذي ستبدأ به حياتي. إنه سخف أن أرفض نسخ عشرة دفاتر من كتاب "التاريخ الكبير". ستبقى حجرتي التي أعمل وأنام فيها مغلقة ومضاءة إلى ساعة متأخرة من الليل، بدل النوم باكرا. أنظري إلى البيت العتيق الذي ورثته عن أبي، الذي تقيمين فيه الآن، والذي ورثه بدوره عن والده وأجداده، إنه مبني برهافة وصبر. وأنت تعلمين أن الرهافة والصبر هما سلاحي الذي سأواجه به الحياة.

سأنسخ الدفاتر الثمانية، التي هي في الحقيقة الثمانية أو العشرة مجلدات، بصبر وأناة ورهافة. ولن أدع أحدا غيري يفوز بهذه الفرصة. وأنا أملك الطاقة اللازمة لذلك. درب الناسخين مليء بالمنتظرين، الذين يمدون أعناقهم كاليتامى في انتظار وترقب دفتر واحد ينسخونه في ليلة أو نصف ليلة. وبما أن ابن عساكر قد شرفني بنسخ جزء من كتابه، فلن أرفض حتى وإن باغتني الموت وأنا أنسخ.

حبيبة قلبي، دعيني أشركك في حيرة عملي، وأنا أتصفح الدفاتر الثمانية، وجدت العديد من الحواشي كان من الصعب علي تخليص المتن منها. حتى أنني لم أتبين الناسخ صاحب الخط، إذ كانت بخط نُسّاخ وعلماء كثر كان يستشيرهم ابن عساكر. كنت دائما أريد أن أنبه المؤلف إلى ضرورة أن يتخلى عنها، لأنني وجدت، بحكم تجربتي الطويلة في النسخ، أنها أضعفت المتن وخلخلته.

أنا الآن سهران، شمعتي قرب وجهي تضيء المخطوط، شمعة مضاءة جيدا كأنك انت من وضعت لها الزيت. يدي وعقلي وذاكرتي بين ذهاب وإياب من مخطوط إلى آخر. لكنني، رغم كل ذلك، أفكر فيك.

ثمانية مجلدات من كتاب "تاريخ دمشق" عليّ نسخها. ثمانون مجلدا اقتسمها عشرة ناسخين. كل واحد ينسخ ثمانية مجلدات. وكل شيء سيكون تحت المراقبة الصارمة لابن عساكر، المعروف

بالطبع الحاد، والسـرعة في اتخاذ القـرار. كنت أضع المجلدات الثمانية قرب سـريري، أراها وأرتعد. أرفض تسـميتها "دفاتر". فورقها الكثيـر، وحجمها الكبير، ولغتهـا، والخط التاريخي الذي تتبعـه، يجعلها بحق مجلدات مخيفة لمن يعتزم قراءتها، فكيف لمن يروم نسخها؟

المجلد الأصلي سيء الخط. كأن من كان ينسخه رجل أعمى.



2

أبو موسى الورّاق يخرج من الظلام

اســـمه أبو موســـى، وكنيته الوراق. الرجل المســـكون بالورق والحبر. ظل يبحث عني ويسأل القريب والبعيد، دون تمييز. بحث عني طيلة أيام كأنه والدي الذي كان يطارد خطواتي ورائحتي في كل مكان، وفي الأخير يجدني في أقرب مكان إليه. حين رآني كاد يســـقط من الفرح. كأنه خرج من الظلام ووجدني أمامه مباشـــرة. الفصل هو فصل الشـــتاء. الريح قوية تحرك كل شـــيء، لكنها لا تســـقطه من مكانه. طرق أبو موســـى طرقتين على الباب. سمعت واحـــدة فقط. تلك هي طباعه؛ يقول جملتين، يُســـمع واحدة ويخفي أخرى. يخطو خطوتين، واحدة تُسمع والثانية خافتة، أو بلا صوت. شخص آخر غيره لا يفعل ذلك. إن سمعت طرقة واحدة، اعلم أنهما اثنتان. الأولى مســـموعة والثانية مضمـــرة. اعلم أنه هو. صاحب النعـــل الخفيف، والخطوة الخافتة، واليد التي تحمل دائما مخطوطا كثير الورق. أبو موسى الوراق القصير. هذا الرجل النافع لم يظهر منذ ثلاثة أشـــهر. بقي في داره كل تلك المدة، ولم يخرج إلا بعد أن انتهى من نسخ كتاب في عدة مجلدات عنوانه "إدراك ما لا يُدرك"،

مقابل أجر بلغ عشرة آلاف دينار. وهو أجر كبير. لكن إذا ما عرفنا أن **يحيى بن الحســن** هو الذي أعطى ذلك الأجر، وهو من هو في العطاء والجود والسخاء، وإذا عرفنا أن أبا موسى الوراق، الرجل الحســن الخط، هو الناسخ. وإذا عرفنا أن ذلك الأجر هو عن كتاب "إدراك ما لا يُدرك"، فإن العجب سيزول.

أدخلته إلى الدار وأجلسته قربي وناولته كأس ماء دون أن يطلب. لاحظت أنه حسن المظهر مبتهج الوجه. من يعرفه لن يخطئ أمر نسخه لكتاب أخرجه من حفرة الفقر. لم أشأ أن أسأله عن الهدف من زيارته، كما لم أشأ إحراجه باستفساره عن سبب السؤال عني، فالناس في كل مكان يعرفون أن أبا موسى يبحث عني لأمر عاجل. بقينا نتحدث إلى ان وصل إلى مربط الفرس وبدأ يخبرني عن الجهد الذي بذله لنسخ كتاب "إدراك ما لا يُدرك".

عندما أخبرني في البداية بالأجر الذي تقاضاه مقابل نسخ الكتاب المذكور ظننت أن القصة مختلقة، أو على الأقل فيها بعض التلفيق. فأنا لم أستبعد أن أبا موسى قد وضع نفسه مكان "أبان بن عبد الحميد" الذي كلفه "يحيى بن خالد البرمكي" بنقل كتاب "كليلة ودمنة"، ووهبه على هذا النقل عشرة آلاف دينار. غير أنني عندما كلمت أبا موسى في شأن ما حدث ل"أبان" مع يحيى البرمكي وعشرة آلاف دينار، وجدت أنه لا علم له بالأمر. وهنا علي أن

أعترف بأن أبا موسى قليل المعرفة بقصص وتاريخ الورّاقين. إذن، عشـــرة ألاف دينار ونســخ كتاب "إدراك ما لا يُدرك" أمران حدثا فعلا، وما التشابه بين الشخصيات والمبلغ إلا من قبيل الصدفة.

حكى لي كيف أنه بذل جهدا كبيرا في نسخ الكتاب. تنافس في الفوز به أمام وراقين آخرين ذاع صيتهم في جمال الخط وطهارة النفس والملبس. كان في تلك الأيام فقير الحال، حزين النفس. كان لا يُمنح في الشهر سوى ما يقارب أربعين دينارا فقط. وكان أحيانا يكتب النسخة الواحدة من كتاب، ديوان شعر أو نثر، ويعرضها أمام وراقته، فيأخذ عنها عشرة دنانير، يشتري بها لحما وفواكه وثوبا لزوجته "سرور بنت أحمد". تختفي الدنانير في يوم واحد، فيعود لنسخ كتاب آخر وعرضه أمام أعين الناس.

لن أنسى زيارته تلك الليلة. لن يُمحى من ذاكرتي أبدا أنه ذات ليلة نفذ زيت مصباحي فقررت الخلود إلى النوم باكرا. فسمعت يدا تطرق الباب وصوتا ينادي باسمي من النافذة. عرفت أنه صوت أبو موسى. قمت وفتحت الباب وأدخلته في الظلمة. جلس قربي وشرب جرعة ماء وهمس لي بأنه يرغب في لقائي غدا في وراقته لأمر يريد استشارتي فيه. ولما رحت في الساعات الأولى من صباح الغد وجدته حائرا، حزينا، مترددا، بل خائفا ومرتجفا. بعد أن وضع أمامي كأس ماء شرع في الكلام بشكل سريع كأنه آلة كلام:

- سمعت أن **أبا القاسم بن سعيد** يبحث عن ناسخ لينسخ له الجزء الأول من كتاب "الغازي والمغازي"، ونظرا للحال الصعب الذي مررت به منذ مدة، فأنا أرى أن هذه هي الفرصة للخروج من فقري وفاقتي. وأنت الرجل الوحيد الذي يمكنه اقتراح اسمي على ابن سعيد لأنسخ الكتاب وأتقاضى عنه أجرا كبيرا يخلصني مما أمر به. خصوصا وأن زوجتي "سرور" ستضع في الشهر القادم إن شاء اللـه.

لا أخفي أنني، عند سماعي تلك الكلمات، بذلك الصوت الخفيض المليء بالحزن، كنت كمن يسمع نحيبا أو عويلا. أبو موسى رجل لا يشتكي مهما كان الألم وسوء الوضع، ولا يطلب طلبا مهما كان المأزق والحاجة. الأمر إذن يستحق اهتماما خاصا.

قلت له إن أبا القاسم فعلا يبحث عن ناسخ للجزء الأول من **"الغازي والمغازي"**، لكنه يشترط عدة شروط يجب أن تتوفر في الناسخ. يجب أن يكون عازبا حتى لا تلهيه زوجته وأولاده عن عمله. وأن لا يتجاوز الثلاثين، كي يصبر للسهر والاعتكاف. وأكثر من ذلك فهو يريد كتابه جاهزا خلال شهر واحد، بدءا من يوم استلام المخطوط.

بعد الانتهاء من بسط شروط أبا القاسم، فاجأته بالسؤال:

- لكن قل لي أين كنت طيلة هذه المدة؟

فأجاب:

كنت أنسخ كتابا، وقد انتهيت منه منذ أيام.

قلت له:

- إنـــي أعرف أجزاء الكتاب التي نسـخـتها، وهـــي ليحيى بن الحســن الذي يغدق على الوراقين والنسّــاخ. لا شك أنك تقاضيت مبلغا ضخما؟

- لكنه ذهب إلى جيوب الدائنين.

أحصاهم لي واحدا بعد آخر، كل واحد باسمه. وكلهم من الذين لا يتركون درهما واحدا في جيب المقترض.

***

لم تكن تلك أياما سهلة على الناس في فاس. والوراقون كانوا يعيشون حالا صعبة تدفع أغلبهم إلى النسخ بأثمان زهيدة. مظهرهم وهم جالسون في عمق وراقاتهم يثير الشفقة. بل إن عددا منهم، رغم حداقتهم وبراعتهم في الخطوط المدورة، أو ما يُعرف بالكوفي المقور، قد هجروا مهنة النسخ إلى العمل في معامل الكاغد، تلك الأماكن الغامضة التي يدخل إليها الناس لكسب المال، فيجدون أنفسهم داخل عالم غامض، بلا مال ولا آمال. بلغ عدد معامل الكاغد في فاس 104، وهو رقم يدل على انتشار الكتابة وتكاثر

ممارسيها. إلا أنه رقم يخفي بؤس الحال وتعاسة المآل.

منذ ليلة البارحة وأنا أفكر في شخص ورّاق يقف إلى جانب أبي موسى المأزوم. فاقتراح اسمه على أبي القاسم نتيجته هي الرفض. سيرفض أبو القاسم لأن شرطا مهما من شروطه غير متوفر في أبي موسى؛ الرجل متزوج من "سرور" الحامل التي ستضع بعد شهر. إضافة إلى أن أبا القاسم يشترط مدة زمنية لنسخ جزء واحد من "الغازي والمغازي" لا تتجاوز شهرا. كيف سيعمل أبو موسى وهو مشغول بزوجته وبمولوده القادم؟

ذهبت إلى حانوت بغربي جامع فاس "القرويين" يلتزم فيه الوراقة رجل ورّاق بارع اسمه ابن صقر الأنصاري البلنسي. وجدت الحانوت نصف مغلق ففهمت أن الرجل يصلي في المسجد. انتظرته إلى أن عاد وجلسنا في الحانوت الواقع في ذلك الزقاق الأخضر بالنبات. فتح باب الحانوت وهو ينطق بكلمات الترحيب والشوق، ودعاني إلى الجلوس. قال إنه تعب من هذا الحانوت الضيق، وإنه وجد حانوتا أوسع من هذه في باب الحمراء، وهي قريبة من مركز الكغادين، مما سيسهل عليه نقل الأوراق من المصانع إلى الحانوت.

تعود معرفتي بالرجل إلى سنين طويلة، أيام كنا نسافر معا إلى مدينة "سبتة" لشراء الورق الذي اشتهرت به. كنا نقصد حانوتا

يقع في زنقة تحمل اسم "زقاق الرواق". وقد توطدت علاقتنا واقتربنا من بعض في تلك الليالي الباردة التي كنا نبيت فيها عند الوراق السبتي أحمد بن أبي الحسن الرومي. قبل أن ينتقل إلى "باب الوراقين" بفاس، بنفس الجامع، ثم إلى "باب جامع الجنائز"، حيث ترقيق جلود الغزلان ونحوها، إلى أن تصبح صالحة للكتابة عليها. وقد كان بارعا في اختيار أحسن الجلود الصالحة للكتابة، لذلك كنت أقصده كلما رغبت في شراء كمية من الجلود. وكنا في الليالي المعدودات التي نقضيها في بيت ابن الرومي السبتي نستفيد من بعض في أمور الخط المغربي والأندلسي والمشرقي، إذ إن السبتي كان ضليعا وعالما في كل أنواع الخطوط.

من مميزات ابن صقر، وهي ميزة أيضا عند أبي موسى، ومن أجلها قصدته، أنه جيّد الخط سريع الكتابة، ثم إنه لا يعيش إلا من الوراقة، مثل أبو موسى تماما. ثم إنه، وهذا هو الأهم، كان يشبه أبو موسى في حرصه على كتابة المصاحف الشريفة بخط حسن ويهديها للمحتاجين لها. وقبل أن يستغرق أبو موسى في النسخ ويختفي عن الأنظار طيلة ثلاثة أشهر، كان قد نسخ مصحفين بخطه وأهداهما لرجلين فقيرين وورعين قدما من دمشق بحثا عن عمل في معمل من معامل الكاغد بفاس. بل إنه توسط لهما لتعليم الخط المشرقي، إلى جانب خطاطين مغاربة وأندلسيين، لبعض أبناء يعقوب المنصور حسب القوانين العلمية. ثم انتقالهما لإشاعة تعلم

الخط في "جامع الأشراف" بمراكش، حيث يقيمان إلى اليوم، بعد زواجهما من مغربيتين؛ الأولى هي عائشة، التي تكتب هي الأخرى بخط مغربي بدوي مشكول في بعض مستنسخاتها التي بها عُرفت واشتهرت. فقد نسخت، هي خديمة ربها، مصحفا شريفا. والثانية هي خديجة، وهي امرأة ورعة، اضطرت لفقرها إلى امتهان الخط والكتابة، ولكن يُقال إنها تُجيد تسفير الكتب أيضا.

فوجئ أبو صقر بوجودي أمام حانوته، سلّم عليّ بحرارة، فقد انقطعت الصلة بيننا منذ عودتنا ذات ليلة شتوية من سبتة كادت الجلود التي جلبناها معنا أن تفسد. أذكر أن لون الجلد لطخ ثياب أبي صقر، خصوصا من الظهر والكتف الأيمن، ولما نبهته إلى الأمر نظر إلى ظهري وضحك ثم قال: أنظر إلى لون ظهرك، لقد أصبح بلون تفاحة مقشرة.

أول ما أثار انتباهي في الحانوت، غير الجلود المتراكمة والورق والمصاحف التي شرع في تسفيرها، آنية من نحاس مغلفة بجلد مصبوغ باللون الأحمر، وقد جعلها أبو صقر لصيانة الأقلام. سألته عنها وعن مصدرها والبلد القادمة منه، فأخبرني بأن ورّاقا فاسيًّا شرع في صناعة مثل هذه الأدوات، وقد أبدع منها لحد اليوم اثنتين، واحدة هي التي في حانوته، والأخرى في وراقة أبا طاهر السبتي. أما الصانع فهو أبو موسى الوراق. ذُهلت حين ذكر الاسم. قلت له

إن أبا موسى أبدع في صناعة المحابر أما هذه الأداة الجميلة لصيانة الأقلام فلا علم لي بأمر صناعتها مع أنني التقيته ليلة البارحة.

وأنا أتأمل الآنية عادت ذاكرتي إلى ما يقرب السنة، حين كنت في بيت أبو موسى، وكان منهمكا في قراءة، ونسخ، كتاب نادر هو عبارة عن رسالة في تبسيط صنعة التسفير وتحضير الأوعية الجلدية لأدوات الكتابة، كالمحبرة، والسكين، والمقرض، والأقلام. لم أهتم كثيرا بأمر ذلك الكتاب لأنني كنت في زيارة من أجل أمور أخرى. فنسيت أمر ذلك الكتاب إلى أن أخبرني اليوم أبو صقر. إذن، لقد قرأ أبو موسى تلك الرسالة كاملة وشرع في تطبيق قواعدها في صناعة الأوعية الجلدية والنحاسية التي تحفظ أدوات الخط. وهذا ربما سيكون مصدر رزق آخر لذلك الورّاق المفلس على الدوام.

كم تمنيت لو أخبرني أبو موسى عن صناعته الجديدة، لأساعده في تسويقها ونشرها بين الوراقين والكتاب والخطاطين، بل هناك من سيقتنيها لتزيين البيت والمكتبات والخزانات، أو لتقديمها كهدية. إنها أداة صغيرة وجميلة تصلح لأن تكون على الدوام قرب الأوراق، وعلى يمين كل ناسخ.

أخبرت أبا صقر بأن صانع هذه الأداة الجميلة يبحث عن عمل ضخم يقوم بنسخه ليعيل به أسرته من دخله. وبأنه في أمس الحاجة

إلى مساعدته. وأنه، في الحقيقة، طلب مني التدخل له عند أبو القاسم الذي ينوي نسخ أجزاء من كتابه "الغازي والمغازي"، لكنه سيرفض تكليفه بنسخ الكتاب لأنه يشترط نسخه في مدة لا تتجاوز الشهر، وأبو موسى الوراق مشغول جدا ولا يستطيع نسخ الكتاب في ثلاثين يوما، إنها مدة قصيرة جدا بالنظر إلى المشاغل الكثيرة التي هو غارق فيها، هذا إضافة إلى أن زوجته حامل وستضع قريبا.

أجابني أبو صقر قائلا إنه يعلم بكل تلك الظروف، وفاجأني أكثر بخبر آخر مفاده أن مؤرخ الشام ابن عساكر بعث يبحث عن ناسخ من المغرب للمشاركة في نسخ، ضمن فريق كبير من النُسّاخ، كتابه الضخم الذي يضم ثمانين مجلدا، "تاريخ دمشق"، وذلك بأمر من السلطان نور الدين محمود، لكن أبو موسى رفض دون تردد لأنه لا يستطيع الذهاب إلى الشام وترك زوجته تلد وحدها. وأضاف أن مصدره في معرفة تلك الظروف والأخبار هو زوجة أبو موسى بنت عمّ زوجته. وهما يتزاوران باستمرار، خاصة في فترة حمل زوجة أبو موسى. سألت أبا صقر إذا كان أبو موسى قد حدثه عن رغبته في العمل على نسخ أجزاء من كتاب "الغازي والمغازي" فقال:

- نعم، لقد حدثني في الأمر حين زرت بيته رفقة زوجتي

واقترحت عليه العمل في حانــوت الوراق محمد بن أبي عبد اللـه الذي ذهب إلى مصر وترك حانوته مغلقة. وهي عبارة عن مصنع صغير تتوفر فيــه كل أدوات العمل، ويضم رفوفا من الكتب التي تنتظر النســخ. وقد وافق وها نحن ننتظر عودة محمد بن أبي عبد اللـه الذي طالت ســفرته على غير العادة، إذ كان يذهب إلى مصر ويعود بمال وفيــر من صناعته للورق، وقد وجدت صناعته هناك شهرة واسعة، أقبل عليها الناس.

- وماذا كان جواب أبو موسى؟

- لقد قبل العرض، وهو الآن ينتظر عودة الوراق من مصر. كما أنني عرضت عليه العمل في أحد مصانع فاس، وكان ردّه أن هذه المصانع بدأت تتراجع في صناعة الورق بعد دخول الورق البغدادي وورق مصر والشام. وفي الأيام الأخيرة غزا الورق الإفرنجي المستورد من البندقية بإيطاليا السوق وزاحم الورق المغربي، وذلك ينذر بإفلاس سيصيب مصانع فاس. كما أن أبا موسى منخرط في حملة ضد استعمال ورق الروم، وقد وجدته في آخر زيارة منهمكا في نسخ كتيب صغير لا يحضرني عنوانه كاملا، لكني أظنه قريبا من هذا العنوان: "الحجة والمعلوم على السماح بالنسخ على ورق الروم"، أو شيئا من هذا القبيل.

اقتنعت دون أدنى شك بأن أبا صقر يعرف أبا موسى أكثر من

أي شخص آخر، فبدأت حماستي في البحث عن عمل يضمن له أجرا قارّا تتوارى. فلو أراد أبو موسى الاتصال بأبي صقر لفعل هو ذلك بنفسه. فلماذا أدخل أنا في عملية ربط بين شخصين يعرفان بعضهما ويرتبطان أسريا ويتزاوران ويعرفان أسرار بعضهما. لكن أبو موسى سيبقى صديقي الكبير، الخالد، الوفي والفقير الذي يحتاج إلى مساعدة، خصوصا في الأيام القادمة.

3

المحبرة الأبنوسية

" لقد استولى علي الحرف وتمكن مني نكد الزمان، إلى الحد الذي لا أسترزق مع صحة نقلي وتقييد خطي، وتزويق نسخي، وسلامته من التصحيف بمثل ما يسترزق البليد".

أبو حيان التوحيدي
"الصداقة والصديق"

غادرت وراقة أبو صقر وأنا أفكر في الفكرة الخطيرة الطارئة: مشاركتي في نسخ "تاريخ دمشق". دارت في رأسي الفكرة كالزوبعة، أتعبتني وشغلت عقلي ووقتي. هل سيقف الحظ إلى جانبي هذه المرة؟ من يستطيع مساعدتي وإرشادي وإسداء النصح لي؟ لقد أصبحت، فجأة، حائرا وسائلا مثل أبي موسى الوراق الحائر، السائل عن السبل السالكة. عدت إلى البيت عبر أزقة ودروب لم أسلكها من قبل، لكني أعرف أنها تؤدي إليه. أزقة ملتوية ومتربة وخالية من العابرين والمارة. كنت أجتنبُ اللقاء بالناس كي لا تفسد فكرتي الطرية في رأسي. ثم إن حيرتي أثقلت لساني وحركاتي. كيف أحدثهم حين ألتقي بهم؟ كيف أردُّ على أسئلتهم الخارجة من ألسنتهم كسياط من نار؟ هم يريدون معرفة الكثير من الأخبار من فم كل شخص يقف أمامهم. آه يا فاس، لقد أصبحت مثل دغل موحش. هل دمشق مثلك في الهيكل والشريان؟ فجأة لمع في ذاكرتي اسم أبو طاهر الشاعر. هذا هو الشخص الطيب الذي بإمكانه الإنصات وإسداء النصح لي. قصدته دون إبطاء. فكل تأخير يمكن أن يفوّت عليّ فرصة ثمينة.

وجدته جالسا في عتمة وراقته. جلست إلى جنبه وأنفاسي تُسمع من مسافة. سألته دون كلمات أقدم بها سرّ مقدمي:

- هل زرت دمشق؟

- نعم، لماذا؟

- أريد السفر إليها.

- إذن أنت تطلب الحيازة والرخص والفواكه، وليس التجارة.

- هذا كل ما تصف به دمشق؟

- لا، اسأل وأنا أجيب. وإن أردت الحقيقة فأنا لا أعرف بلدا أجلّ من الشام. إنها أطيب بلد في الإسلام. لكن الشام بلد قليل الحظ. والجميل في أهله هو تميزهم بالشغب. هنا أحيلك على رأي لمحمد بن أحمد المقدسي: "كل بلد تحيط به أنهار، فإن في أهله شغبا وخروجا".

- هل أحكامك هذه مستقاة من معاينة صحيحة؟

- تستطيع قول ذلك، مع إضافة ما سمعته من الثقات، ومما وجدته في الكتب المصنفة في باب البلدان والأقاليم.

شعرت بان الحرّ أصبح يخنق الوراقة المعتمة. طلبت من أبي طاهر الخروج والجلوس أمام الباب، فهواء فاس رقيق هذه الأيام. فبعد توهجه في الصيف، ينقلب في الفصول التالية إلى رهافة تطرد

كل ضيق في الصدور. لذلك تسمع الناس في الصيف تقول: نطلب من اللـه الفرج. واعتدال الجو هو ما دفع أبو طاهر يوافقني على فكرة الخروج من العتمة الخانقة في الداخل. ونحن نتحدث عن جمال هواء فاس وفوائده العديدة، حتى اعتدل مجالسي وأكد أن كل بلدة تقع قرب الجبال يكون مناخها هكذا. لذلك فهواء فاس من أصحّ البلدان. كل مدينة لا تتصل ببحر هي هكذا.

سألت أبا طاهر عن أحبّ أمكنة الشام إليه. فأجاب بأنه أحب حلب كثيرا، فهي بلد نفيس خفيف حصين. في أهلها ظرف، ولهم عقول. وانتقل ليقول كلاما بدا لي غريبا عن حمص؛ فالناس هناك تشرب، أكثر ما تشرب، من ماء المطر. وأن المسلمين لما فتحوها عمدوا إلى كنيستهم وجعلوا من نصفها جامعا. وفي السوق قبة على رأسها شبه رجل من نحاس واقف على سمكة تديرها الرياح الأربع. وكان سيسترسل في سرد الأعجايب والأحكام لولا أنني قاطعته:

- أنا بي شوق لا نظير له لسماع أحبار دمشق.

- دمشق، دمشق، هي مصر الشام. سترى فيها ما لم تره ولن تراه في بلد آخر. بُنيانها من خشب وطين، أكثر أسواقها مغطاة، ظليلة. لكن فيها سوق على طول البلد مكشوف، حسن. لن ترى أبدا أحسن من حماماتها، ولا أرخص من أسعارها، ولا أكثر من

أشجارها وثمارها، ولا أعجب من فوّاراتها، ولا أحزم من أهلها.

بقي يحدثني في استرسال ورأسه إلى أسفل. لا يصمت إلا ليتذكر، ثم يعود إلى الحديث مدققا في التفاصيل، كمن يتذكر شيئا تحفظه ذاكرته. لاشك أن ذلك يخفي سرّا. من منّا لم يحلم بلقاء شخص يشبه أبا طاهر، زار الدنيا كلها وهو شاب، وعرف الناس والبلدان. وأنا أعتبر نفسا من كبار المحظوظين لأنني التقيت به، وأسلمني قلبه وعقله وذاكرته. وهذه علامة حظ كبرى عليّ أن أسيطر عليها وأبقيها معي حتى لا تتحول إلى نذير عواقب مشؤومة. قلت له وعلامات الرضا تملأ كلماتي:

- بم تنصحني زيارته أولا؟

- لا بد أن تعي شيئا هاما. لا تزر الأماكن المليئة بالناس. في البداية ابق متوحدا ومنعزلا لتراقب الناس بحرية حتى لا تتعرض لإكراه التدخل والمشاركة في ما يجري أمامك. أم الشام مكان طيب جدا. أعرف من دروبها باب الجابية، باب الصغير، باب الكبير، باب الشرقي، باب توما. لكن قل بداية ما سبب الذهاب إلى الشام؟

- سأشارك في نسخ كتاب "تاريخ دمشق" لابن عساكر.

- آه، نعم، إنني أرى أمامي حجم التعب الذي ستعانيه. في هواء دمشق يبوسة، وأهلها غاغة. لا تأكل لحومها في البداية فهي عاسية، قاسية وصلبة. اختر منزلا رحبا، فأغلب منازلها ضيقة.

- في أيامي الأولى أتصور أنني سأقضي معظم أوقاتي في مسجدها الأموي.

- إنه مسجد عظيم لم تر عينك مثله. بل إنه أحد عجائب الدنيا. المسجد هو أحسن شيء للمسلمين اليوم. لكن ما أُنفق فيه من مال مبالغ فيه. لو أصرف الوليد ذلك المال في عمارة الطرق والمصانع ورمّ الحصون لكان أصوب وأفضل.

بينما نحن منخرطان في تقليب أوجه دمشق، مرّ بنا رجل صانع وبيده محبرة من أبنوس جميلة الصنع، تأنّق في إبداعها، أرانا إياها وقال: هذه المحبرة أتوجّه بها إلى أحد الكبراء، وأرغب بأن تتمموا احتفالي بها، وذلك بأن تكتبوا لي أبيات شعر أدفعها معها. أطرقنا قليلا نفكر في مطلبه. لا أخفي أنني لم أقرأ شعرا منذ مدة. وحتى ما حفظته بدأ يتلاشى في ذاكرتي. غير أن أبا طاهر بادر وسأله:

- من قال لك إنني شاعر، وإن صاحبي هذا حافظ للشعر؟

أجاب الرجل دون ارتباك:

- لم يخبرني أحد عنكما والله. فقط حدسي قال لي إنكما من عالم الأدب.

صمت أبو طاهر وقال:

- اسمع هذين البيتين:

وافتك من عدد العلا زنجية في حلة من حلية تتبختر

سوداء صفراء الحلي كأنها ليل تطرزه نجوم تزهر

سُرّ الرجل كثيرا للبيتين. فكتبهما على المحبرة الأبنوسية وانصرف شاكرا. وما إن غاب عنّا وراء الطرف الآخر من الزقاق، حتى عاد وفي يده قلم من نحاس مُذهّب، فقال لنا: سأدفع هذا القلم مع هذه المحبرة، نسيت أن أذكره لكما. أرجو أن تكملا صنيعكما بذكره في بيت شعري إضافي أو بيتين. التفت إليّ أبو الطاهر وطلب مني أن أقول شعرا في القلم النحاسي. طرقت مفكرا في استسلام تام، لقد جاء دوري، فقلت:

حملت بأشرف من نجار حليها تخفيه أحيانا وحينا يظهر

خرسان إلا حين يرضع ثديها فتراه ينطق ما يشاء ويذكر

انصرف صاحب الهدية. مازحت **أبا طاهر** قائلا:

- انهض أيها الشيطان، لقد فككت عقدة لساني في قول الشعر.

- انهض نحو السوق ونتمم حديثنا في الطريق.

توجهنا مباشرة إلى السوق. كان الجو حارا، وأرجلنا تتحرك بصعوبة وسط المارة. سألته عن سر هذا التعب الذي يشعر به جميع الناس هذه الأيام؟ التفت إليّ وطيف ابتسامة يظهر على وجهه. عرفت أنه سيسخر أو سيقول نكتة. قال: هل نعلك يؤلمك

في وسـط القدم؟ قلـت نعم. ثم أضاف: وهل تشـعر في كفك بألم يأتي ويروح؟ أجبت بالإيجاب. ضحك وقال: لقد رأيتك في الصباح وأنت جالس تكتب شـيئا على نعلك. وعندما لم تجد مكانا تكتب فيه قيدت باقي الكلمات على كفك. لقد ملأت نعلك وكفك بالكتابة، فكيف لا يؤلمانك؟ ثم ضحك بصوت مسموع.

مـا قاله كان صحيحـا. وأنا أغادر بيتي نحـو دكانه، مرّ عليّ شـاب وطلب مني أن أنسـخ له بضع صفحات من كتاب"القوت"، فلـم أجد ورقـة أو قطعة صغيرة من الجلد أو غيره أسـجل طلبه وموعد الانتهاء من النسـخ. فكتبت على نعلي وكفي حتى ملأتهما. وقد تعلمت ذلك من سـعيد بن جبير الذي قال: "... أتيت ابن عباس فكتبـت في صحيفتي حتى أملأها، وكتبـت في نعلي حتى أملأها، وكتبت في كفي...". هذا ما ذكره ابن سعد في "الطبقات الكبرى". لكني لم أذكر لأبي طاهر ذلك في أحاديثنا السابقة، فهو يسخر منّي حيـن أكلمه عن كتب تأثرت بهـا، وطبقت في حياتي ما جاء فيها. لكن من الممكن أن أكون قد كلمته عن ذلك، فأنا في لحظات صفاء، وهي قليلة، أفتح قلبي وأسكب ما فيه على مائدة شاي أو طعام، وبعد ذلك أنسى. لا يمكن أن يكون ذلك حدسا من أبي طاهر. لا شك أنني كلمته. لكن لا يهم.

بعد أن مشينا مسافة في اتجاه السوق لمع في ذاكرتي ما قرأته لابن الجوزي في "المنتظم" على أن غسّالًا دخل على "أبي القاسم

ابن ناقيا" بعد موته ليغسله فوجد يده مضمومة، وبعد أن فتحها وجد فيها مكتوب:

نزلت بجار لا يخيب ضيفه أرجو نجاتي من عذاب جهنم

وإني على خوفي من اللـه واثق بأنعامه والله أكرم منعم

لقد فتح الغسّال يد الميت وقرأ ما كتب عليها. وهناك قصص كثيرة عن الكتابة على اليد ليس الآن موضع ذكرها. لابد أنني ذات يوم من مسامراتي معه قد ذكرت له إحداها.

بقيت أمشي جنب أبي طاهر، خطوة بخطوة، فكرة بفكرة، خاطرة بخاطرة. لا شك أنه يسأل نفسه: ما الشأن الذي من أجله سيقصد هذا الناسخ الغريب الأطوار مدينة دمشق، خلا المشاركة في نسخ كتاب ابن عساكر؟ ولماذا يمشي هكذا جنبي ويرافقني إلى السوق كما لم يفعل في يوم من الأيام؟نقطع عنك، ما الذي يمكن توقعه من صديق قديم قطع عنك، ثم فجأة يظهر كأنه خرج من الأرض، ويمشي جنبك كأنه يحرسك؟

يقع السوق في نهاية شارع طويل تتفرع عنه أزقة ضيقة مبلطة ترتاح الأقدام وهي تمشي عليها. الدكاكين التجارية مفتوحة أبوابها ونوافذها الضيقة. صخب شديد يُسمع من مركز السوق. المنجّدون ومصلحـو الأثاث أفرغـوا دكاكينهـم في المسـاحات الصغيرة الخارجية. منهم من يسـكنها ويمارس تجارتـه فيها في آن. وفي

ذروة البيع والشراء ترتفع الأصوات والنداءات بالألقاب والأسماء الأولى أو أسماء الآباء. وهناك دكاكين صغيرة لا أثاث أو سلع فيها، لكن الداخلون إليها والخارجون منها لا تتوقف حركتهم طيلة اليوم. هناك يُقرض المال بنسب عالية الفائدة. كنا في الغالب نجتنب حتى النظر إليها. وإن أراد المرء أن يسمع مزيدا من المآسي التي تحدثها تلك الدكاكين فليدخل أي مسجد ويسمع ما تلوكه الألسن حول الموضوع. معلمّو الحرف والشّغيلة يمرقون من أمامنا وهم يحملون شيئا ثقيلا أو خفيفا. ولأن أبا طاهر رجل هادئ ولطيف فقد كان يوزع التحيات على المارّين في السوق. لقد كان أسلافه، سواء من جهة الأب أو الأم، منجدين وموسيقيين. وهي مهن تضمن الشهرة لصاحبها، ويصبح معروفا لدى كافة الناس، وأينما مشى تبقى شهرته معه كأنها قُماشة ترفرف فوق رأسه. وهو أمر يسرّ الناظر والمنظور.

بقينا نجول في السوق، من دكان إلى دكان، غير عارفين ماذا نريد وماذا نشتري. إلى درجة أن من يريد اقتفاء أثرنا سيجد صعوبة كبيرة في العثور علينا. وقد انتبهنا إلى أننا زرنا بعض الحوانيت مرتين، خصوصا تلك التي تعرض بضاعتها بطريقة متألقة، وسألنا عن أسعار السلع كأننا نزورها للمرة الأولى. وذلك يخلف استياء لدى البائع.

بقي أبو طاهر يسير وأنا جنبه، وأحيانا وراءه أو أمامه. ما هي

وجهته؟ إنه يقصد منزله الآخر وسـط السـوق. هكذا قال لي دون مقدمـات ولا تحديـد لموقع البيت. لم أكن أعلـم، أو على الأصح لـم يبلغني خبر انتقاله للإقامة في بيت يقع وسـط السـوق. فخبر مثل هذا ستلوكه ألسنة السـوء ببراعة ومتعة. فأن يتخذ أبو طاهر من بيته الجديد مكانا لممارسـات مشبوهة أمر ضعيف الاحتمال، لماذا إذن ستتحرك الألسـنة داخل الأفواه؟ بقيت أمشي معه كأنني متواطئ معه. بدأت خطواتي تتعثـر دون وجود عائق واضح. لم لا وأنا أمشـي في سـوق يقع في مركز المدينة، جنب رجل لا ينفد مخزونه من الأسرار نحو بيت فارغ، منعزل، ليس هو بيت زوجته المرحومة وأبنائهما. صحيح أنني شاهدت أمورا رائعة وأنا أجتاز السوق من طرفه الأول إلى طرفه الآخر، لكنني متعب، لقد أوهنني انشغالي بقصة المشاركة في نسخ "تاريخ دمشق".

أثارت أسماعنا أصوات صراخ قادم من زقاق ضيق ومعتم. التفت أبو طاهر بسرعة وتدحرج نحو مدخل الزقاق كأنه سقط من أرجوحة. هذه جسارة عرفتها فيه منذ أيام لقائنا الأول. ثم أطل برأسه محاولا تبين ما يجري: صبيان يضربون رجلا كبير السن بالعصي، والرجل المسن يصرخ وجدران البيوت ترتج. وما هي إلا لحظة حتى خرج المنجدون من دكاكينهم وفي أيديهم أدواتهم الحادة، القاطعة للثوب والخشب. وهنا بدأت السيادة للمسن الذي أمسك بعصي الصبية وانهال عليهم بالضرب وهو ينادي بتزويده

بأكياس يحشرهم فيها. بعد أن شاهدنا ما كنا نريد مشاهدته، غادرنا المكان ونحن نتدحرج، هدفنا الوصول سالمين إلى البيت "المشبوه". أثارتني رائحة كريهة تفوح من جهة أبي طاهر، وعندما لاحظ تقززي من الرائحة خفض رأسه ونظر إلى نعله، فإذا بها قطعة لزجة تلتصق بخُفّ الرجل اليمنى، لا شك أنه داس بقدمه على تلك الفضلة التي وضعتها مؤخرة مجهولة، عندما كان يطل برأسه في مدخل الزقاق المظلم الذي تعرض فيه الرجل المسن للاعتداء.

بدأ الجو يتخفف من حرارته الخانقة. تخلص أبو طاهر من خُفّه الأيمن الملطخ بالفضلة، وبدأ يمشي كالأعرج وهو يتكئ عليّ. خيّم الصمت، لاشك أنه يفكر في ما أفكر فيه: حادثة تعرّض الرجل المسن للضرب من طرف الصبية علامة شؤم. هذا ما سيكتبه أبو طاهر في كراسه المسائي على ضوء الشموع، فتلك هي عادته.

أوليس هذا البيت الصغير الذي نقصده هو ذلك الحلم القديم وقد تحقق، حلم إنشاء مدرسة صغيرة لتعليم النسخ للناشئة؟ لقد أصبح أبو طاهر، الأرمل الحديث العهد، يرى نفسه معلما لنسخ الكتب، سيدا في عالم مختلف. وهذا العمل هو ما سينسيه وحدته والغيوم الجديدة التي تلبّد حياته بعد موت زوجته. ها أنا إذن أستقبل عالما مختلفا، وطموحا جديدا يجتاح حياة هذا الرجل الحامل دوما للطموحات الكبيرة التي هي وحدها الكفيلة بحفظ تماسكه وتماسك الكون من حوله.

من المثير للاهتمام أن يبقى هذا العجوز مولعا بمهنة خالدة ويصرُّ على تعليمها للآخرين، ضمنهم أبناؤه بدون شك. اقتربنا من البيت الذي لا أعرف موقعه، ولكن ما أن بدأت خطواته تهدأ وتتباطأ حتى أحسست أننا اقتربنا من المملكة الصغيرة الساحرة التي ستزدهر فيها واحدة من أجمل المهن في التاريخ. شمس أخرى، إذن، ستبتسم لمهنة كل المهن، وحرفة جميع الحرف في هذا الزقاق الضيق، في سوق أصبح تجارها يضطرون لعرض بضاعتهم خارج جدران دكاكينهم ليراها المتبضّعون والمارة حتى دون نية في الشراء. أثارت انتباهي أغصان شجرة زيتون تطل من وراء سور بيت بسيط المظهر. ثم نطق وهو يبتسم: "ها نحن في الممكلة الصغيرة المزهرة". ورغم أنه نطق بالجملة ورأسه مرفوع، وفمه يبتسم، إلا أن النبرة حزينة. من أين هذه الروح الحزينة التي تحيط بهذه الأمكنة؟ أصابتني الدهشة من سيطرة أبو طاهر على نفسه، بصبر جمّ، لإبقاء أمر هذا البيت سرا لم يتم الكشف عنه إلا في الوقت المناسب، وأمام الرجل المناسب. فقد عُرف عنه منذ زمن طويل تكتمه الذي هو وريث انطوائية ميزت جل أفراد أسرته، بدءا من والده رحمه الله، إلى إخوته. إخفاء كل شيء إلى أن يحين وقت الكشف هذا هو شعاره. فالشيء المخفي سيظهر إلى النور حتما، مثلما تظهر نبتة من جوف الأرض.

لا أخفي أنني منذ بداية الزقاق بدأت أفكر في الرجوع متذرعا

بأي شيء يخطر على بالي. لكنني شعرت كأنني وصلت نقطة اللاعودة. إضافة إلى أن مضيفي أبدى اهتماما كبيرا بزيارتي هذه. فكيف أخذله؟ وأنا متأكد من أن لا أحد يعرف سرّ وجود هذا البيت المتواري. وأستطيع أن أصارح نفسي عن كوني عجزت عن مقاومة طلبه. لماذا؟ لا أعرف. فأنا أتردد كثيرا في زيارة بيوت الآخرين. وكيف إذا كانت هذه البيوت مجهولة بالنسبة لي. وها أنا اليوم أسير بخطى مسحورة إلى بيت لم أسمع به من قبل. أعرف بيت أبي طاهر الأول، الأصلي، أما هذا الكائن داخل هذا الزقاق المتاهي فلا. وجدتني أشبه فراشة من فراشات الليل التي تحلق في فضاءات لا تعرفها بعماء تام. وهذا البيت السري هو الضوء الذي شدّ الفراشات إليه.

حين اقتربت أكثر رأيت نقشا صغيرا على الباب، وبجانب الباب يقف رجل عجوز كابد من أجل النهوض وإلقاء التحية علينا. كان جنب الحائط مكوما على نفسه. ثم سلم مفتاحا لأبي طاهر الذي دس بعض النقود في يده. أشياء غريبة تتم بسرعة أمامي ودون تعبير بالكلمات. وهذا ما زاد من ندمي على المجيء إلى هذا المكان الغريب قاطعا أزقة متعرجة.

دخلنا الدار، كان الجو حارا. بدأ أبو طاهر ينتقل من غرفة إلى غرفة، كأنه يتجول في مكان ليس له. بدا لي رجلا لا يحب الاقتراب من الآخرين. سأكف عن قبول أي شيء يقوله لي. سأستبدل "نعم"

بـ"لا". عندما دخلت هذا البيت الغريب الصامت لم يعد بإمكاني الانسجام مع أبي طاهر. كل ما يقوم به من حركات، من ذهاب وإياب، وانتقال بين الغرف بتلك الهرولة المقرفة لم يرقني. تركني في غرفة وشرع هو في الانتقال بين الغرف كأن البيت ليس بيته. بدأت العتمة تعم البيت، وكل كلامه بدا شبيها بثرثرة في الظلام. لقد بدأ يتصرف بهذه الغرابة بسبب شيء حدث في الماضي ويخفيه عن الجميع. ما هو هذا الشيء؟

وهو يكلمني بكلمات غير واضحة وخافتة بدأ صوته يرتفع كأنه يريد للناس خارج البيت أن يسمعوا ما يقول. يتكلم ويتوقف عند باب الغرفة وينظر مطولا كأنه لا يعرف ما يراه. حيرة لم أر مثلها. لكن لماذا أتى بي إلى هنا؟ أليجلسني في غرفة معتمة ويبقى هو ينتقل بين الغرف ويكلمني من بعيد كلاما لا أستبينه؟ لا، لا من المستحيل أن يتخذ من هذا البيت المعتم بيتا ثانيا له.

مغامرتي للوصول إلى هذا البيت تعني الكثير. تعني أولا أن أبا طاهر يمارس تأثيرا قويا عليّ، مثل تأثير السحر. وتعني ثانيا أنني لا أملك ردا على الأفعال المفاجئة التي تعترضني. وثالثا أن كل خطوة وراءه ستكون أسوأ من الخطوات السابقة. سمعنا طرقا على الباب، تحرك أبو طاهر من أمكنته، من غرفه برشاقة وفتح الباب، فإذا بالشيخ الذي التقينا به عند باب البيت يظهر منحنيا ومتعبا. دخل وهو ينادي على صبية يتبعونه. قدموا من السوق وهم

يحملون أغراضا وضعوها في الباحة الصغيرة. بدخول الصبية أصبح الهواء أكثر ثقلا. صخب وحركة سريعة وملتوية، من الغرفة إلى الباحة، ومن الباحة إلى الغرف الأخرى. يضعون شيئا هنا ثم يعودون ليحملونه إلى مكان آخر بسرعة مدوخة، وبارتباك ظاهر، وصوت العجوز الخافت يأمرهم بحمل شيء ووضع آخر.

منذ زمن بعيد وأنا أعرف ولع مضيفي بالتبضع من الأسواق. كان يتردد كثيرا على محلات بيع الورق والجلد. فهل تكون تلك البضاعة التي جاء بها الرجل العجوز والصبية من السوق أوراقا وقطع جلد اشتراها أبو طاهر من السوق، وأدى ثمنها وكلف الشيخ المريب بنقلها إلى هنا؟ ثم إن سلعة الورق أصبحت تباع بثمن منخفض بسبب تراجع الإقبال عليها. فهل اشترى أبو طاهر كمية كافية للسنوات القادمة قبل أن يرتفع ثمنها من جديد؟ ثم ما سبب تكتمه عن كل ما يحدث أمامي؟ كان يمكن أن يطلعني عن سر البيت الجديد، وعن الشيخ الذي لم أره يوما في السوق، فأنا أعرف كل أصدقائه، سواء في عالم النسخ أو في مجال التجارة. بدا لي أن أشياء كثيرة تظهر من تحت الأرض. بل هناك مشاعر جديدة لم أحس بها أبدا أصبحت تحرك عقلي وجسدي. وأبو طاهر نفسه أصبح يتصرف كشخص غريب عني. قررت مغادرة البيت دون إثارة انتباه أحد. سأعود إلى السوق ربما أجد تفسيرا لما يحدث. تركتهم منشغلين بإفراغ الأكياس وتوزيع المحتويات على الغرف

الضيقة المعتمة، وخرجت إلى هواء لا يشبه الهواء الذي في الداخل. وأخيرا خرجت الفراشة العمياء تاركة الضوء الجاذب وراءها.

***

كانت العودة إلى الخارج أمرا صعبا. بقيت أحتمي بالظلال من الشمس. الحيطان لا تفعل شيئا تجاه هذه الحرارة القاتلة. شيئا فشيئا بدأت أستسلم. منذ أن غادرت بيت أبي طاهر، وقدماي تسيران نحو وراقة عبد الرحمان في السوق. كان جالسا يدخن في الداخل، في زاويته المفضلة، القليلة الإضاءة. في هذا المكان من العالم يوجد شخص اسمه عبد الرحمان. شخص يعمل باستمرار ودون ملل، كمن يبحث عن الذهب، والذهب بين يديه.

خيوط الشمس تدخل إلى الوراقة عبر كوة صغيرة في وسط السقف. عبد الرحمان هو من وضع تلك الكوة، في ذلك المكان، في الوسط. قال لي إنها كانت مائلة إلى الجهة الشمالية من السقف. لم يفهم كيف وضع المصمم تلك الكوة بذلك الشكل الذي يعطي للمكان منظرا مقززا. بل إنه في أحيان كثيرة، كما حكى لي، كان يحس بأن السقف مائل، أو شيئا من قبيل تلك الأحاسيس التي تولدها الأشكال المشوهة، أو ذات القياسات الخاطئة، أو غير المتوازنة ذلك التوازن الذي يجعلك تشعر بالتكامل. قلت له إن هذا المكان

يبادله نفس الحب والاهتمام، وجلست جنبه، بعد أن رفعت سلة الخبز التي كانت على يمينه ووضعتها على مائدة صغيرة عليها أقلام وحبر وأوراق وطروس. كان مستغرقا في التفكير في شيء ما. تقطيبة جبينه والتركيز الكبير في عينه يقولان إنه كان يفكر أو يتذكر. كنت على وشك مفاتحته بموضوع البيت الجديد الذي يهيئه أبو طاهر لأمور غامضة، فعدلت.

وجدته قبل ثلاثة أشهر على نفس الحال، عندما طلب مني أن أقرضه مبلغا بسيطا من المال، لتغطية مصاريف أكل وشراب ضيوف قدموا من بغداد. قرضته المبلغ على الفور دون أن أسأله عن موعد تسديده. أنا أيضا كنت في ضائقة مالية تلك الأيام. لكنني لا يمكن أن أرفض لعبد الرحمان طلبا. واليوم أجده على نفس الحال والمظهر، هل مشكلته هي المال مرة أخرى؟ لا أظن، قلت في نفسي. فقد كلمني قبل أسبوع عن عمله الكثير، والدخل المالي الذي أصبحت تدر عليه عمليات النسخ. ففي الأيام الماضية فقط نسخ لحماد النافع ديوان المتنبي. ومن نسخ ديوان المتنبي لا يمكن أن يبقى فقير الحال.

ماذا، أو من، يشغل بال عبد الرحمان إلى هذا الحد؟ شعرت من نبرة صوته وكأن قلبه قد انتزع من مكانه. حاولت أن أشـــركه في الحديث عن حياتنا المشـــتركة، عن النسخ الذي يكاد يجعل حياتي

وحياته متشابهتين. ليس النسخ مجرد مهنة بالنسبة لنا، بل هو عالم مليء بالهواء والإحساس والرغبة. لكنه عجز عن النطق. عجز عن الدخول إلى الحديث عن هذه الهموم، هو الذي يكون سيدا كلما خاض فيها.

لأخذ وقت كاف للتفكير في هذا الوضع غير العادي قمت من مكاني متوجها ويدي تسبقني إلى زاوية في الوراقة هي بمثابة متحف صغير يضم قطعا من الجلد كُتب عليها بعناية فائقة. أذكر أن عبد الرحمان كان دائما يفضل الكتابة على الجلد، وعندما تسأله عن سبب ذلك التفضيل يردد عليك ما كتبه الجاحظ: "عليك بها (الجلود) فإنها أحمل للحك والتغيير، وأبقى على تعاور العارية، وعلى تقليب الأيدي، ولرديدها ثمن، ولطرسها مرجوع، والمعاد منها ينوب عن الجدد".

يوجد في تلك الزاوية أيضا ورق هش مكتوب، ودفاتر القطني الشهيرة. غير أن عبد الرحمان لم يسبق أن ردد ما قاله الجاحظ في دفاتر القطني التي ليس لها ثمن في السوق.

سألته بعد أن عدت إلى مكاني جنبه: هل حماد النافع يحب شعر المتنبي؟ فأجاب: لا يحب شعره ولا شخصه. فأضفت، بعد أن ارتحت إلى كوني نجحت في حل عقدة لسانه: ماذا تقصد؟ كيف ينسخ ديوانه وهو لا يحبه؟ قال بحزم: الكتابة على الورق

قضاء على الشعر والشاعر. الورق لا يصبر على "تعاور العارية، ولا علـــى تقليب الأيدي"، ومن ثم عندما يفنى الورق يفنى الشــعر والشـــاعر. على مالك الديوان أن يحرص علـــى بقائه، لأن هناك قـــراء يطمعون في الاطلاع عليه أو حفظه. هل تســتطيع أنت أن تعير لغيرك كتابا نسخ على الورق؟ الورق يأبى التبادل والإعارة. وحتـــى إن لم تعره أو لم تعرضه لتقليب الأيدي فإنه يفنى من تلقاء نفســه. قلت له معارضا: لكن يا ســيد عبد الرحمان أنت تعرف أن مجموعـــة من الناس يفضلون كتابا منســوخا على الورق حتى لا يتعرض لأطماع الغيــر. أجابني فورا وكأنه كان يتمرن على مثل هــذه المحادثات: وهل هناك من يفلت من طمع الموت؟ تذكرت في الحـــال الرجل الذي مرّ بنا، أنا وأبو طاهر، وطلب منا كتابة أبيات من الشـــعر على محبرة من الأبنوس. لقد كان، حســب كلام عبد الرحمان، يجنب تلك الأبيات طمع الموت.

استغربت كثيرا كونه ينطق بالكلمة الأولى دون قدرة على المتابعة. فأين ذهب نهر الكلمات الهادر الذي كانه؟ أتذكر أنه كان يكثر من التفاصيل والأسماء والمصادر وأسماء الورق وأنواع الجلد المخصص للكتابة. أين ذهب كل ذلك اليوم؟ لم يبق منه شيئا. حتى الظلال لم تعد موجودة. أنا الشاهد الوحيد على ذلك، لأنه لا وجود لأحد برفقته يمكنه أن يلاحظ هذا التغيير. لا زوجة، لا ولد، ولا صديق غيري أنا.

جلست ببصري في أركان الوراقة الصغيرة، هربا منه ومن مزاجه الجديد. من هذا التوتر الذي يظهر ويختفي. فكرت في أنه لا يمكن السماح لليأس والحزن أن يتسربا إلى هذا العقل، إلى هذا القلب الطيب. عبد الرحمان هو اسم قلب وليس اسم رجل يعيش في بلدة صغيرة، ويعاني من وحدة قاتلة، ومن عمل كثير ينتظره. أسرار كثيرة تتدافع داخله، وهو نفسه حائر في أيها الأفضل، أيها الذي يستحق الذكر والبوح.

أثار انتباهي ذلك الكم من الجلد المكدس في الزاوية. لم يلحقه التلف رغم مرور زمن طويل على وجوده هناك.

كان عبد الرحمان، الرجل الحزين الذي أمامي، يؤكد والفرح يطير كالفراشات من عينيه أن الجلد من طبعه الصبر وعدم الوفاء. فهو يصبر على الحك والاحتكاك. كما أنه يساعد على التناسخ. تذهب حروف وتأتي أخرى دون أن يفاضل بينها. والحق يقال، فطيلة مزاولتي لمهنة النسخ لم أسمع رجلا يتحدث عن الجلد بهذه الطريقة. ولم أر ناسخا حبّب الناس في الطرس، أو الطلس، وفي الصحف التي تمحى ثم تكتب مثلما فعل هو. وما تلك العادة التي اكتسبتها، أي الكتابة على النعل أو على جلد يدي، إلا من تأثري بمديحه المستمر لمادة الجلد.

عبد الرحمان قلب كثير الحب، وعقل واسع العلم. غير أن عيوبه

كثيرة. فأصابعه طويلة جدا مقارنة مع قصر ذراعه، كما أنه يشكو من لثغة في الشين، أي أنه ينطق الشين سينا. وهو عيب لا يلاحظه الأشخاص الذين لا يمتلكون حس الملاحظة. أما هو، الكثير الحديث في المجالس والمسـامرات الأدبية، فإن ذلك العيب كثيرا ما يجعله موضوعا للسخرية. ويدفعه إلى بذل جهد كبير لتفادي تلك السخرية. أما حيلته في تفادي سـخرية الآخرين فهي نفسها حيلة "واصل بن عطاء" الذي كان هو الآخر يشكو من لثغة في الراء. وهو عيب لم يكن ممكنا تقويمه. وحالته أكثر مأسـاوية من حالة عبد الرحمان، إذ أن واصلا كان خطيب مسجد، وكان كثير الخصوم. فتمكن يوما من حل تلك المعضلة "الرائيـة"، باللجوء إلى تغييب حرف الراء من أحاديثه. إذ بدأ يجتنب الكلمات التي تضمه. وهذا ما بدأ يقوم به عبد الرحمان في الأيام الأخيرة. فهو الآخر اختفت من كلامه جميع الكلمات التي تضم حرف الشـين. غير أن ذلـك لم يحل معضلته بالكامل. فاجتناب كلمات تضم حرف الشـين يسـتوجب تعويضها بمرادفاتهـا التي تؤدي نفس المعنى، وذلـك يقتضي جهدا ومهارة لغويـة توفرت لدى واصل بن عطـاء، ولم تتوفر بنفس القدر لدى عبـد الرحمان. مما جعله يبدو مترددا وحائرا، مقبلا ومدبرا، أثناء الحديث. يرفع عينه إلى السـقف، ويدير وجهه يمينا ثم شمالا، يقرأ وجوه الناس، مركزا على شفاههم بحثا عن ابتسامة تشجيع أو عن ضحكة سـاخرة. كان يتتبع أيضا حركة الرؤوس والإيماءات. لقد

كان كل حديث خال من كلمات الشـــين يحتوي على حديث ضمني مليء بها. والمستمع إليه، خصوصا في دروسه التي كان يلقيها في وراقته، لابد أن يبحث عــن الخطاب المخفي الذي يتضمن حرف الشين، أي يتضمن الفضيحة.

كان على عبد الرحمان أن يراقب نفسه باستمرار. غير أن محنته الكبرى، والتي هي محنة واصل كما ذكرها الجاحظ، هي كيفية تدبيره للعدد ولأسماء الشهور "التي تضم الحرف المحرم". بل إن كلمة "شهر" نفسها تضم حرف الشين، فكيف كان يتصرف؟ أذكر أن عباس الوراق، وهو من أشد خصومه، كان دائما أثناء مجادلته له يدفعه إلى النطق بكلمات شينية لا مرادف لها، فما كان على عبد الرحمان سوى استبدالها بعبارات كاملة لا تكون مناسبة دائما. عندها يبدأ الغمز واللمز. فلم يكن مثلا يقول "شهر رمضان" بل "رمضان الأبرك"، أو "أيام الصيام". لم يكن يجد صعوبة في أيام الأسبوع، فلاشين فيها. غير أنه يمكن الاعتراف أنني كنت أشفق عليه لأنه كان يسقط دائما فيما يريد تجنبه.

كان أيضا يجتنب ذكر أسماء العلماء والمتصوفة التي تحتوي أسماؤهم على الشين. لم يحدث أن ذكر اسم "الشهرساتني"، رغم أنه يحب قراءته والاستشهاد به. والمرة الوحيدة الذي ذكره فيها كان في خطاب مكتوب، أو في ورقة سجل عليها مجموعة من

الملاحظات، لم أعد أذكر بالضبط. قرأت ذلك ولم أكن أعرف لحظتها أنه بدأ يفضل كتابة حرف الشين على نطقه.

سبق لي أيضا أن رأيت حالة الارتباك والحزن هذه مرسومة ومرقشة على وجهه ذات ليلة طرقت بابه. كان مشغولا بنسخ كتاب "دوحة الواعظ". وهو كتاب من أربع مجلدات عليه أن ينسخه خلال ثلاثين يوما. أخبرني أنه إن تجاوز تلك المهلة فعلى التجاوز أن ينحصر في عشرة أيام فقط. كان حزينا، وعندما سألته عن السبب قال بصوت كالصراخ: الذي كتب الكتاب بالإملاء من صاحبه حرّف العديد من الأشياء والحقائق، ولا سيما التواريخ والعبارات. فاقترحت عليه أن يضع كل شيء شك في أنه محرف بين قوسين، أو يكتبه بمداد مختلف، أحمر أو زعفراني. قال: أتعرف بماذا أحلم؟ قلت: بم؟ قال: بالراحة. قلت: أتعرف قصة ابن الحاضنة الناسخ؟ قال نعم أعرفها وأحفظها عن ظهر قلب. لكن لا بأس من إعادتها عليّ فأنا أتوق اليوم أكثر من أي يوم مضى إلى السهر والمسامرة.

قلت: جاء في "البداية" لابن كثير، ولا أذكر في أي جزء من الكتاب، أن ابن الحاضنة هو الآخر كان يتوق إلى أن يستريح من النسخ، إذ قال: "لما غرقت بغداد غرقت داري وكتبي فلم يبق لي شيء. فاحتجت إلى النسخ، فكتبت "صحيح" مسلم في تلك السنة

سبع مرات، فتمت. فرأيت ذات ليلة أن القيامة قد قامت وقائل يقول أين ابن الحاضنة؟ فجئت فأدخلت الجنة، فلما دخلتها استلقيت على قفاي، ووضعت إحدى رجلي على الأخرى وقلت: استرحت من النسخ، ثم استيقظت والقلم في يدي والنسخ بين يدي".

قبل أن أصل إلى الوضع الذي اتخذه ابن الحاضنة، استلقى عبد الرحمان على قفاه، ووضع ساقا على ساق مثل ابن الحاضنة تماما، كما لو أنه يستبقني بالحركات إلى سرد الحكاية. ثم قال إن قدر الناسخ أن يبقى القلم ملتصقا بيده حتى لو قطعت. تعرف قصة "ابن مقلة" الخطاط العظيم الذي قطعت يده اليمنى، فربط القلم بساعده واستمر في الخط.

سألته: ولماذا لم يكتب بيده اليسرى؟ لقد خاف أن تقطع هي الأخرى. ألا تعرف أن لسانه قطع أيضا؟ اليد واللسان. يد عبد الرحمان تكتب كل كلمة أو اسم فيه الشين واللسان لا ينطق بها. لكل وظيفته. لكن في حالة "ابن مقلة" فإن اللسان يقوم بما تقوم به اليد. لذلك قطعا معا، الواحد بعد الأخرى. اللسان بعد اليد.

قررت أن أزيل كل غموض عن حال عبد الرحمان، فسألته عن السبب الذي جعله لم يقترن لحد الآن بامرأة. أحسست كأنني أخاطر بفقدان صديقي. فالمعروف عنه تكتمه عن أحواله الشخصية والعائلية. فهل سيجيب شخص لا يصرح حتى بتاريخ ميلاده عن

مثل هذا السؤال؟ ومثلما هو حسن الخط والزخرفة فهو حسن الحديث، شديد الاحترام لمحدثه. أجابني وقد جحظت عيناه وخفت صوته مفصلا حديثه عن حالته المادية التي لا تسمح له بالزواج وبالإنفاق عن أسرة. فهل يتزوج من أجره أربعين درهما في الشهر؟ خصوصا مع هذا العدد من الوراقين والنساخ الذين يتزايد عددهم في السوق يوما بعد آخر، مما جعل أسعار النسخ في انخفاض. فالناس أصبحوا في حاجة للكتب، لكنهم أصبحوا أيضا يدققون في تحديد سعر النسخ. لم يبذل عبد الرحمان الكثير من الجهد لإقناعي بالحال الذي آلت إليه مهنة الوراقة والنسخ. فأنا ناسخ مثله، أسبح في نفس المياه التي يسبح فيها. قلت له إن "ابن وادع" أسوأ حالا منه، فهو ينسخ ويأخذ أجر ما ينسخ حطّة الثمن، وهو متزوج. وأن "ابن أحمد الخجندي الدمشقي" العالم اللغوي الشهير تفرغ للوراقة والإفتاء دون أن يتقاضى أجرا عما يورقه. ومع ذلك فهو متزوج وله أبناء يعيلهم.

كان "الخجندي" قد زارنا منذ عام، إثر مروره بفاس، وأقام عندنا عشرة أيام. وقد مرّ في طريقه إلينا على بغداد ليلاقي بعض الوراقين في سوق الورق هناك. ذهلنا من وصفه البارع لسوق بغداد، ومن عدد حوانيت الورق التي بلغ عددها المائة. حدثنا عن السوق الذي يقع في الجانب الشرقي لبغداد، بجوار "خان الزبل". ويوجد بهذا الخان الوراق الشهير "سند الوراق" الذي ورد اسمه في

كتاب "الأغاني" للأصبهاني. سألنا "ابن أحمد" عن مسجد يصلي فيه. أجابه عبد الرحمان إن المسجد يوجد خارج السوق. اندهش، ومرة أخرى فاخرنا بسوق بغداد الذي يوجد فيه مسجد بناه رجل اسمه "وضّاح"، هو القائم على خزانة السلاح، بأمر من الملك المنصور، ليصلي ويجتمع فيه تجار السوق يوم الجمعة. الجخندي صديق كبير لعبد الرحمان الذي بدا اليوم حزينا لا يسعده حتى حضور الأصدقاء. أخرجني من شرودي وتذكري عندما قال:

- لقد سئمت البقاء هنا في الوراقة وحيدا مثل البومة. أريد أن أسافر وأهيم بحثا عن وجوه العالم الأخرى.

سألته:

- إلى أين تريد أن تذهب؟

- إلى بغداد، عندي هناك أحبة أنا شديد الشوق إليهم.

هل تذكرت الجخندي على سبيل الحدس؟ وهل هو مقصده في بغداد، المدينة التي لا أعرف له فيها معارف كثر، باستثناء الجخندي؟

بادرته بالسؤال:

- معظم الناس هذه الأيام يتجهون إلى بغداد.

- هل عندك مكان تريدني أن أتجه إليه؟

- نعم.

- ما اسمه؟

- اسمه وراقتك. مكانك الذي تعمل فيه، وصنعت فيه اسما بلغ كل هذه الشهرة. هل تعرف لماذا جئت إليك؟

- كيف لي أن أعرف؟

- زارني أبو القاسم رفقة ابن يونس مساء الخميس الماضي، وفي حوزتهما كتاب "تاريخ دمشق"، يريدان نسخه. وهما يبحثان عن ناسخ مغربي من خيرة النساخ للقيام بذلك. في البداية سنعمل على النسخ هنا في فاس. وبعد مدة سيحددها ابن عساكر سننتقل إلى دمشق للالتحاق بفريق النسخ. لقد وافقت على القيام بهذا العمل، رغم الصعوبة الكامنة فيه. وقد اقترحت اسمك واسم أبو موسى الوراق واسم أبو طاهر الشاعر للانضمام إلى الفريق. لقد كلف ابن يونس نفسه بإقناع صديق لابن عساكر حتى يضم فريق النسخ أكثر من ناسخ مغربي.

- هل وافق ابن عساكر على اسمك؟

- سيوافق بدون شك. إنه يعرف قيمة الوراقة المغربية. والأكثر من ذلك فهو يعرف عدد الكتب، أمهات الكتب، التي نسخها المغاربة. وقد أخبرت أنه يمدح كثيرا الخط المغربي، ودقة وصبر المغاربة في النسخ.

- هل يوافق ابن عساكر حقا على قيام عشرة نساخ بنسخ كتابه "التاريخ الكبير"؟

- ولماذا لا يقبل؟ هو من حدد العدد.

- عملية النقل الجماعي أو التنسيخ الجماعي خطر على الكتب. فتوزيع أجزاء المخطوطة على عدد من النساخ تساهم في انتشار الأغلاط بكل أنواعها.

- لكنها، لنعترف بذلك، تمكن من نسخ الكتب في ما أقصر ما يمكن من الوقت.

- أنا لا أستصوب تقسيم عملية النسخ على عدد من النساخ إلا في حالات وظروف خاصة. مثلا كتاب "تاريخ دمشق" لصاحبك ابن عساكر يفرض عملية النسخ الجماعي، لأن الكتاب في ثمانين مجلدا. لكن ما هي المدة التي يعطيها ابن عساكر للانتهاء من نسخ الكتاب؟

- سنتان.

- إنها مدة قصيرة. علما أنك ينبغي أن تفهم المخطوط فهما كاملا كي تتمكن من نسخه على أدق وجه.

- سنناقش كل هذه الأمور ونحن نعمل معا على نسخ كتاب "التاريخ الكبير". والآن هل آخذ موافقتك؟

- نعم، يمكنك الاعتماد عليّ في هذه العملية الكبرى.

- شكرا، لكن أقترح عليك، ونحن نعمل على النسخ هنا، ترك وراقتك والإقامة عندي.

- أقيم عندك طيلة مدة النسخ التي هي سنتان؟

- لا فقط بضعة أشهر قبل أن نرحل إلى دمشق. وستكون ضيفا عزيزا ومرحّبا بك.

- وأترك هذه الوراقة للغبار والظلال؟

- أقترح عليك أن تؤجرها لبعض العلماء والمؤلفين الذين يريدون إطالة النظر في كتبها ومخطوطاتها.

عندما اقترحت على عبد الرحمان تأجير وراقته، كنت قد تذكرت أن العالم الجليل "ابن الراوي" قد أوصاني بوراقة يريد اكتراءها للمطالعة والمبيت إن لزم الأمر. وإن لم يكن "ابن الراوي" فهناك عدد من طلبة العلم من ينفقون المال الكثير على الورق والحبر والمطالعة. وهم من أهم رواد السوق. إضافة إلى أنهم ينشدون البقاء لحضور المناظرات التي تنظم في العديد من الحوانيت والدكاكين والوراقات. والأهم من ذلك تلك المزادات، إذ من الشائع هنا أن كثيرا من الكتب كان ينادى عليها، خصوصا الكتب النادرة التي تباع في مزاد علني.

***

خرجت من السوق وأنا أشعر بأن الوقت قد حان لكي أنطلق انطلاقة جديدة. لم أصدق أنني غيرت رأي عبد الرحمان العازم على السفر إلى بغداد. وإقناعه بالعمل معي في نسخ كتاب الحافظ ابن عساكر. لقد فهمت كربه. كان ضجرا من روتين نسخ الكتب الصغيرة، ودواوين الشعر، وفصول بعض الكتب لصالح أفراد هم مجرد قراء عابرين يلقون إليه ببعض الدراهم، ثم يأخذون مخطوطاتهم ويمضون.

عبرت السوق مسرعا. وفجأة وجدت أمامي جمهرة من الناس تحضر مزادا علنيا. كان عددهم يتجاوز الثلاثين. وهو رقم سيرتفع خلال دقائق إلى الضعف. المزاد يتعلق ببيع كتب القاضي "مروان بن سفري". لم أجد في كتبه المعروضة أمام الناس شيئا أستحسنه. لكنها بيعت كلها خلال نصف ساعة. اشتراها شخص نزل توا من إحدى السفين، وكان يبحث عن شيء يهديه لمضيفه القاضي "محمد بن عبد الملك". هذا ما أكده لي "ابن يونس" الذي كان واقفا يطل بعنقه على مجريات المزاد.

كنت في تلك اللحظة باردا، هادئا أفكر في عملية نسخ كتاب "التاريخ الكبير"، إلى أن أخرجني المنادي وهو يعلن شيئا آخر يعرض في المزاد للقاضي "مروان بن سفري": فراشه الذي كان ينام عليه. ففكرت للتو في المزايدة عليه وشرائه لينام عليه عبد الرحمان عندما يأتي للإقامة عندي. اقترضت مبلغا من المال من

"ابن يونس" أضفته إلى المبلغ الذي كان معي، واشتريت فراش القاضي. وعندما رفعت الوسادة فوجئت بكتاب لسيبويه تحتها. ستكون هدية جميلة، مادام عبد الرحمان يحب سيبويه كثيرا.

كان السوق ضاجا بحركة غير معتادة، هي في العادة حركة نهاية الأسبوع. بقيت أبحث عن حمّال ينقل الفراش إلى البيت. اعتذر "ابن يونس" مني لكونه لن يستطيع مساعدتي في حمل فراش القاضي بسبب ذراعه التي تؤلمه منذ إصابته في الصيف الماضي. قلت له أن يقف جنب الفراش لأخرج أنا إلى باب السوق الغربي بحثا عن حمّال. قرب مصنع الورق وجدت شابا يحمل على ظهره حزمة من الجلد. مهمة هؤلاء ليس فقط حمل المتاع والخيش والأكياس والجلود، بل أيضا إن النسّاخ يستعينون بهم في محو الجلد المكتوب لاستعماله مرة أخرى، وأيضا في طلي الورق بالزعفران والتين لتزييفه وإظهاره بمظهر القدم. كانت أصابع الشاب مطلية بخليط من الألوان، بُنّي وأحمر وأصفر. سعدت برؤيته. لقد عثرت على حمال ودباغ ومزوّر ورق. ما أن رآني أنظر إليه حتى بادرني بالسؤال عن غرضي والخدمة التي يمكن أن يقدمها لي. قلت له إنني سأنتظره في باب السوق حتى يضع الأحمال من على ظهره. أشار لي بيده إلى شجرة قرب باب السوق لأجلس تحتها حتى يعود. قرب الشجرة كان الرقص يشتد على أشده. رفعت صوتي ليسمعني: "ماذا يحدث هناك؟". لم نألف

هذا الرقص وهذه الموسيقى. هذا أمر طارئ على السوق. أجابني وهو يقترب من أذني: "من اليوم سيستغلون هذا العراء". أدرت رأسي باحثا عن "هم". من يكونون؟ من أين أتوا؟ قلت له: "من تقصد؟". أجاب وهو يعيد تثبيت حزمةِ الجلد على كتفه: "في طريقنا إلى قضاء غرضك سأشرح لك كل شيء". فجأة أطبق سكون على باب السوق. عاد الصبي الحمال. قدماه حافيتان. ولهاته يُسمع. قلت له أن يحمل الفراش إلى بيتي الواقع جنوب السوق. رأى أنه من الأفضل جلب عربة صغيرة لحمله. وافقته الرأي. ذهب وعاد بعربة صغيرة وضع عليها الفراش وانطلق وهو يترنم بأغنية حزينة. أما كتاب سيبويه فبقي في يدي هادئا وحزينا.

عند وصولنا طلبت منه أن يترك الفراش جنب حائط الدار، حتى ننظف الغرفة ونخلي له مكانا. ناولته النقود بعد أن عرفت مكان تواجده الدائم. راح يسرع الخطى ويترنح مثل قصبة تلهو بها الريح. لكن الكلمات التي بقيت تنشط في ذاكرتي هي هذه التي قالها بحزن: "عندما لا يكون لي أي عمل أكسب منه، أكون حزينا كأنني فقدت أحدا في عائلتي".

لا أعرف لماذا وثقت بهذا الشاب الذي يقضي أيامه في حمل الأشياء، رخيصها وثمينها. ونسيت، كما نسي هو، أن يشرح لي أمر "الرقص"، وأمر "هم". كم من أشياء تبقى مستمرة دون أن نفهمها من أحد.

في المساء طرق بابي عبد الرحمان. كنت منشغلا بتنظيف كتاب سيبويه وإزالة الغبار عنه، وتسوية العديد من أوراقه التي طويت أطرافها. توقعت أن يكون هدية مفاجئة له. دخل أبو عبد الرحمان، كان نظيف الثوب، مشرق الوجه. شكرني على الدعوة. ثم أردف: والآن لنتحدث في الموضوع. قلت أي موضوع: قال وهو يضرب يدا بيد: هل نسيت؟ موضوع نسخ أجزاء من كتاب "التاريخ الكبير" لابن عساكر. وضعت يدي على رأسي متأسفا عن هذا النسيان غير المقصود. وليتأكد من يقظتي ووعيي بما يجري حولي سألني وهو يبتسم ساخرا: أي يوم هو اليوم؟ قلت: الثلاثاء الثالث من شهر ربيع الأول. ضحك وأضاف: على بركة اللـه، قل لي ما الأمر؟ قلت له: سيوكل إليك نسخ عشرة أجزاء من كتاب "تاريخ مدينة دمشق". أعاد طرح السؤال: ومدة النسخ؟ أجبت: سنتان. هل تكفيك؟

سألني أيضا عن النسّاخ الآخرين الذين سينخرطون في هذا العمل الضخم. فالكتاب يقع في ثمانين جزءا. ما معناه أن ثمانية نسّاخ فقط هم من سيقومون بالنسخ. لكنه استطرد وقال إن الأمر المهم هو معرفة رأي ابن عساكر في الأمر، فلابد من السفر إليه ومجالسته والحديث معه ومناقشته في العديد من التفاصيل. هذه هي طريقة أبو عبد الرحمان، يريد أن يعرف أدق التفاصيل عن العمل الذي ينوي نسخه، وعن صاحب العمل، اللهم إذا كان قد توفاه اللـه.

قمت من مكاني وجلست قربه. أعطيته كتاب سيبويه نظيفا ولامع الحروف. أمسكه مبتسما، فقال: هذا كتاب عزيز على قلبي. لكنه تململ ومدّ لي كتابا كثير الورق عنوانه "تاريخ دمشق" لمصنفه "الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي المعروف بابن القلانسي. كنت متأكدا من أن أبا عبد الرحمان، منذ أخبرته بالأمر، سيبدأ في الاهتمام بما جرى ويجري في المشرق الشامي. لأن ذلك يساهم في التسريع من حركة ذهنه، ومن سيلان حبر قلمه. وأنا أنظر إلى الكتاب وأفكر أضاف أنه يبحث عن كتابين آخرين، أما الأول فهو "مرآة الزمان" لسبط بن الجوزي، والثاني هو "ذيل مرآة الزمان" لـ"اليونيني". سألته عن أهمية ذلك، فأجاب بأن ابن القلانسي كان شاهدا عيانا لأحداث الحملتين الصليبيتين، أما سبط ابن الجوزي فهو شاهد للأحداث التي وقعت بعد وفاة صلاح الدين، أما اليونيني فهو شاهد على الغزو المغولي، وعلى تأسيس سلطنة المماليك.

بقيت عاجزا عن الكلام وأنا أتأمل هذا الشيخ المجدّ والمخلص والوفي لعمله. سألته هل ينوي قراءة كل تلك المجلدات قبل بدء عملية نسخ "التاريخ الكبير". فأجاب بأنه يريد الاطلاع على كل تلك الأحداث التي تضمها الكتب المذكورة قبل اللقاء بـ"ابن عساكر" على أرض بلاد الشام. وأضاف إن ابن عساكر أصغر سنا من ابن القلانسي الذي تقول الأخبار إنه ولد قبله بخمسة وثلاثين سنة. وهو

مدفون في سفح جبل قاسيون. وقد نال شهرة واسعة بفضل كتابه "ذيل تاريخ دمشق" الذي كتب فيه تاريخ العالم الإسلامي منظورا إليه من مدينة دمشق.

استأذنته بعد أن سمعت نداء زوجتي من الغرفة الأخرى. عدت ووضعت مائدة صغيرة أمامه مباشـــرة. وضع الكتاب من يده على الوســـادة التي جنبه. استأنفنا الحديث عن نســـخ مجلدات "التاريخ الكبير". فبادرني بالسؤال عن ابن عساكر هل هو في دمشق الآن أم رحل عنها إلى أحد البلدان المجاورة. فهو رجل رحالة ألف الســـفر منذ كان في العشرين من عمره. فقد كانت أولى أسفاره إلى بغداد، ثم الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي. هذا إضافة إلى كثرة سفره إلى إيران وخراسان وأصبهان وهمذان. أجبته بأنه لا شك أنه موجود في دمشق، فما بلغ من أخباره أنه شديد الاهتمام بنسخ كتابه الكبير. كما بلغني أنه يبحث بلهفة، ويســـأل بشدة عن النسّاخ الذين رشحهم له أصدقاؤه. وليس بعيدا أن نور الدين محمود، ملك دمشق وحلب، هو الآخر شديد الاهتمام بالأمر. فهو من شحذ همته وقوّى عزيمـــة الحافظ لإتمام تأليف "التاريخ الكبيـــر" بعد انصرافه عنه لمـــدة. هكذا انتهى الحافظ من تأليف الكتاب ســـنة 559هـ، الموافق لـ1163م، بعد أن وهن جســـده وكلّ بصـــره. فالكتاب اخترق صباه وشبابه وكهولته. سمعت زوجتي تنادي عليّ، فنهضت وعدت وفي يدي وجبة العشاء وفواكه يحبها ضيفي.

بعد الانتهاء من الأكل تحدثنا حديثا بطيئا ومتنوعا، شسء من كل شيء. ثم نهضت إلى سريري منهك القوة، مهموم الحال. في تلك الأيام أصبحت قليل النوم، كثير السهر. لكن ميزة هذه الليلة أن عبد الرحمان ينام تحت سقف داري.

4

الناسخ يقرأ رسالة الملك نور الدين محمود

"عدد الحروف العربية عدد منازل القمر ثمانية وعشرون، وغاية مبلغ الكلمة مع الزيادة سبعة على عدد النجوم السبعة، وصورة الزوائد اثنا عشر على عدد البروج، وأربعة عشر تندرج مع لام التعريف مثل منازل القمر التي تستتر تحت الأرض، وأربعة عشر فوقها، وهذا اتفاق صحيح".

"محاضرات الأدباء"

أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني

"لم أر باكيا أحسن تبسما من القلم"

جعفر بن يحيى البرمكي

"إن محل القلم من الكتاب كمحل الرمح من الفارس"

النويري



فـــي صباح يوم الغـــد طلب مني عبد الرحمـــان، ونحن نتناول فطورنا، رســـالة كنت قد كلمته عنها في وقت سابق. وهي رسالة وجهها الملـــك نور الدين محمود إلى الحافظ يحثه فيها على تكوين فريق من خيرة الناســـخين لنســـخ كتابه "تاريخ دمشق" المعروف تحت اسم "التاريخ الكبير". كان يمسك في يده كتابا لم أتبين عنوانه ولا كاتبـــه. وضعه على المائدة، ثم نقلـــه إلى يمينه على الأرض. في تلك الأيام كان، كما حدثني عدة مرات، قد اكتسب عادة مراقبة النجوم. إضافة إلى كونه تربطه علاقة قرابة بأربعين منجما، منهم مـــن مازال على قيـــد الحياة. هل الكتاب الـــذي يحمله هو في علم الفلك؟

قلت له دعنا من الرسالة، فأنا أريد أن أتناول معه فطورا هادئا، هذا أشد ما أطمح إليه. بقي ينقل الكتاب من يمين إلى شمال. كان متوترا ووجهه شاحبا شحوبا مختلفا عما عهدته. أمسك بيده كأس حليب ثم أعاده إلى مكانه على المائدة. الحياة صعبة على شخص

مثله. ما هذه الأفكار التي تجعله مترددا وشاحبا هكذا؟ هل نام نوما مضطربا البارحة؟ قبل أن أسأله سألني:

- هل رأيت الهرّة السوداء بالأمس؟

- أي هرّة؟

- بالأمس، طوال النهار، عاشرتني هرّة سوداء خفت منها أشد الخوف. ارتعدت، تعرّقت. من أين أتت؟ هل تعيش معك أم أنها من عشيرة الهررة بالحي؟

- ألهذا أنت شاحب الوجه، شارد الذهن؟

- لا، لا، هذا أمر عابر رغم أنني شديد التطير من الهرر السوداء. كنت بالأمس أقرأ هذا الكتاب، وهو في التنجيم. أنظر إنه كتاب منسوخ. لا أعرف عنوانا له، فصفحاته الأولى ناقصة. لكن الأمر الذي فاجأني هو أنه من نسخ امرأة. أنظر، ها هو اسمها مثبت في الصفحة ما قبل الأخيرة: "سلمى بنت حافظ". هل تعرفها؟

- لا، ما سمعت بهذا الاسم قط.

- ليس هذا هو المهم، ما أقلقني فعلا وأثار دهشتي هو تشابه خطها مع خطي. الخطوط قليلا ما تتشابه. أنظر، هذه فصاحة شبيهة بفصاحة قلمي. وأنظر أيضا، القلم طائش هنا. مثلما يحدث معي تماما. فمرات أكون حسن الخط ومرات أكون سيّئه. هذه

المرأة كتبت مثلي. إضافة إلى أنني لأول مرة أعلم بوجود امرأة تنسخ الكتب.

نهض وجلب أوراقا من كتاب جلبه معه، كان آخر من آخر ما نسخ، ودعاني لإجراء المقارنة بين خطه وبين خط الناسخة "سلمى". لاحظت أن خطه دقيق جدا وضعيف. نظرت إليه وأنا أبتسم، فقلت: ما أحسنه لولا أنه ضئيل، هذا ليس خطك المعتاد، هذا خط طارئ على قلمك. ليست هذه هي ثمار شجرتك. ثم أنشدته هذه الأبيات لـ"الناشي":

كتبت إليكم أشتكي حرقة الهوى ... بخط ضعيف والخطوط فنون

فقال خليلي: مـــا لخطك هكذا ... دقيقـــا ضئيلا ما يـــكاد يبين؟

فقلت: حكاني في نحول ودقة ... كذاك خطوط العاشقين تكون

لم ينطق بأي تعليق على الأبيات. فقط أطرق وتنهّد وقلّب أوراق الكتاب بعنف. استدرك مواريا توتّره وقال اعذرني عن قولي السابق إنني أجهل وجود امرأة تنسخ. عفوا، أنا أعرف ناسخا وورّاقا صديقا استوطن خارج المغرب هو أبو العبّاس أحمد بن عبد اللـه بن أحمد بن هشام بن الحطيئة اللخمي الفاسي نزيل مصر اليوم. كان صحيح الخط، كتب به جملة من كتب الأدب واللغة والحديث، خطه

مرغوب فيه، وقد علّم زوجته وابنته الخط ليشاركوه العمل، يأخذ كل واحد منهم جزءا من الكتاب ويكتب، والناس يجدون صعوبة ومشقة في التفريق بين خطوطهم لتماثلها. إذن، تماثل الخط بين رجل وامرأة أمر نافل. بعد إنهاء جمله الكثيرة والمتتالية، والتي صنعها لتورية ضعفه وارتباكه أمامي، قلت له مصارحا:

- ما بك يا صديقي، هل من أمر تخفيه عني؟ لقد بدأت تتحدث عن النسوة.

- لا، إنه قلق مجهول المصدر والعلّة.

بعد طول معاشرة لعبد الرحمان، والمعاشرة مسبوقة بسنين كثيرة من ذيوع شهرته، أستطيع أن أقول إنني لم أره أبدا بهذا الضعف. فمنذ نزوله عندي أمس والهشاشة تأكل منه. كنت أظن أن تلك قسوة من نفسه عليه. إلى أن اعترف لي بما يزدحم في صدره من هموم. فهو يجد من العار أن يقيم ناسخ وورّاق في غرفة ضيقة، بل يجب أن تكون له دار حسنة. ويرى في نفسه أنه أهل لأن تكون له آلات كتابة ليست لأحد غيره: دواة قيمة، سكاكين، أقلام، براكر، حوض فيه محابر وما شاكل ذلك من الأدوات. كان عبد الرحمان دائما شديد العناية والاهتمام بالمزبر، فهو عنده أشرف آلات الكتابة وأعلاها مرتبة.

فهذا القلم الذي كان قصبة قبل أن يبرى شغل اهتمام الناسخ

الجليل. فكان ينزل إلى الأسـواق ويتخيره. بل كان، حين تسـعفه النفـس ينتقل إلى شـطوط الأنهار ومزارع الكـروم ويتخير منها القصب الصلب، النقي الجلد، القليل الشـحم، الكثير اللحم، الضيق الأجواف؛ فهي، أي الأقلام، وحسـب رأيه ورأي أسـلافنا، أبقى للكتابـة وأبعد من الخفـاء. والكثيرة اللحم القليلة الشـحم، الضيقة الأجواف لا تستهلك الكثير من الحبر والمداد.

"كثيرة اللحم قليلة الشـحم" ليست فقط صفة من صفات الأقلام الحسـنة، بل هي أيضا صفة المرأة المشتهاة في دهاليز العقل. كان عبد الرحمان على علاقة بامرأة اسـمها أم العز، حلّ الفراق بينهما وأكل من قلبيهما. هذا ما اعترف به لي على ضوء سـراج شاحب. قالها بعد مخاض، سـرّ بها لي في ليلة من أشدّ اللّيالي بردا. والحل يـراه في الهروب من كل هذه الأمكنة، إلى مصر أولا ثم دمشـق. يسـتريح في مصر ويزور أصدقاءه ومعارفه هناك، وعلى رأسهم أبو العبّاس اللّخمي الفاسـي الذي حدّثني عنه وعن زوجته وابنته. لـم يعترف أبو عبد الرحمان إلا بعد حدسـه أننـي أعرف ما به، خصوصا عندما تلوتُ أمامه أبيات "الناشـي" عن نحول العاشـق ومحاكاة خطه له كلما كتب.

طلب مني من جديد وبإلحاح منفعل بمدّه برسالة الملك نور الدين محمود. نهضت مسـرع الخطى، دخلت غرفـة نومي وأخرجت مخطوط الرسالة. أخذت الرسالة التي كانت في الوسط من "ديوان

عرقلة الكلبي". وقبل أن أخرج إلى الناسخ ثنيت ورقات من الديوان كنت قد قـرأت أبياتها طيلة ليالي الشـهر الماضي. وخرجت إليه وفي يدي رسـالة وكتابا سـيوقظ داخله همّا وكدرا. جلست أمامه ومددت له الرسـالة، بدأ يقرأها مقطبا، ربما لصعوبة قراءة الخط، رغم جماله وحسـنه. فكاتبها، ربما هو الملك نور الدين نفسه، كان مغتمّـا مثل غمّتنا جميعا، فهو تـارة منتصر وتارة أخرى منهزم. لاحظت أنه مدّ يديه وكأنه يلتقط طفلا. تأملها وقال: "أنظر إلى خط الملك نور الدين. هذا هو الخط الحسن البارز الجميل الذي تُكتب به عقود المهادنة والمسـامحة أثناء الحروب والغزوات. خط الرسالة الحسـن يطمئن القلوب والنفوس، فتسـكن إلى إتمام عمل الخير، وتسـرّ بأحكامه". أبو عبد الرحمان محكوم بظـروف أمّته. فجأة قطعت عليه تأمله في الرسالة، قائلا:

- اسمع هذه الأبيات التي قيلت في عز الأزمات والحروب والاقتتال:

لصوص الشام توبوا من ذنوب	تكفّرهـا العقوبـة والصّفـاد
لئن كان الفسـاد لكم صلاحا	فمـولاي الصّلاح لكم فسـاد

ثم انتقلت إلى أبيات أخرى:

رويدكـم يا لصوص الشّـآم	فإنـي لكم ناصح فـي مقالي

وإياكـم وسـميّ النبـيّ (م) يوسـف ربّ الحجا والجمال
فذاك مقطّـع أيدي النّسـاء وهـذا مقطّع أيـدي الرجال

يخوض الملك نور الدين حربا ضارية من حلب ضد عسكر الإفرنج الذين كانوا ينوون الإفساد في الأعمال الحلبية. وكان قد بلغنا، ونحن أهل المغارب، أنه وجّه رسائل عدّة لمعين الدين الحلبي يطلب منه العون والمعاضدة وحفظ أطراف العرب. وفعلا اجتمع لدى نور الدين ما استدعاه من خيل التركمان والأطراف، ومن وصل إليه من عسكر دمشق مع الأمير "مجاهد الدين". فقويت نفسه، واشتدت شوكته، وكثف جمعه. فوصل جنده إلى ستة آلاف فارس.

وبلغنا أيضا بالتفصيل والتدقيق من تجارنا هناك أن الملك نور الدين انقض على الإفرنج بموضع "إنب" في جهات حلب، فوقعت العين على العين، واختلط الفريقان فتحكمت سيوف الإسلام فيهم. وبذلك كان النصر المبين.

قلت لعبد الرحمان إن هذا الذي نقرأ الآن هو بدون شك خط الملك المنتصر، ألم يقض على ريموند أمير أنطاكية، الشديد البأس على أهل الشام. يحكى أن نور الدين رقص من الفرحة عندما سلّمه جنده

رأس ريموند، الفارس المشهور بشدة البأس، وقوة الحيل، وعظمة الخلقة، واشتهار الهيبة، وكبر السطوة، والتناهي في الشر.

أكد لي عبد الرحمان أنه قريبا سيزور دمشق وحلب وأنطاكية بعد خلوها من حماتها والذابين عنها. وإن أسعفته الظروف وتوفّر العون سيقابل الملك نور الدين نفسه، والحافظ المؤرخ ابن عساكر. هذه الآمال الكبيرة تخفي شوقا عارما ورغبة أكيدة في مواجهة المستحيل وقهر الصعاب. فسألته:

- هل أنت مقتنع بنسخ أجزاء من كتاب "تاريخ دمشق" وأنت بين أهل دمشق وملوكها ومجاهديها؟

- نعم، لي القوة لفعل ذلك. بي طاقة متمادية للانتقال إلى دمشق والعيش فيها والموت على ترابها. وذلك ليس بعيد المنال. فأبو العباس اللخمي الفاسي حدثني أنه ألف مصر أيما ألفة، ولم يعد يستطع الابتعاد عنها وعن أهلها ساعة واحدة كاملة.

- ألا تعرف مكمن قوة اللخمي الفاسي؟

- وهل يفوقني قوة وقدرة على تحمل الفراق؟

- نعم، زوجته وابنته يساعدانه على البقاء في مصر. لو كان وحيدا لما استجمع قوة التحمل والمجالدة. افعل مثله، تزوج قبل أن ترحل إلى دمشق. واجعل زوجتك ترافقك في رحلتك وتؤنسك في غربتك. هذا هو سلاحك الوحيد للبقاء هناك وإنجاز عملك.

- هذا ما سيحصل، سأعود إلى امرأتي التي أحببتها وأحبتني، امرأتي الخالدة ودوائي الأبدي. حبيبتي أم العز. سأعود إليها وأقترن بها ونرحل معا إلى دمشق أو حلب أو أي جهات أخرى في أمّ الشام تساعدني على تلبية رغبة ابن عساكر والملك نور الدين هازم المشركين.

- اعلم أن دمشق مدينة استثنائية، ليس كمثلها مدينة. مناخها مختلف وناسها أيضا. دمشق مدينة دافئة في السلم، باردة موحشة في الحروب. حاضرة حالمة وتجعلك تحلم. افعل ما شئت في دمشق. لكن لا تنسى أن تكتب عنها. فالكلمة عنها تصبح جملة، والجملة فقرة، والفقرة صفحة، والصفحة مجلدة، والمجلدة مجلدات. إنها عاصمة الحياة العربية. عندما تنتقل إليها أكتب لي منها عنها. هذا ما أوصيك به عن دمشق.

- سأرحل بداية إلى مصر، أقيم فيها لبعض الوقت ومنها إلى أمّ الشام.

- أين ستقيم في مصر؟ أنا زرتها كثيرا، وإن شئت أدلك على فندق به ماء صالح للشرب وطبخ نظيف وحمّام قريب.

- ما اسم الفندق؟

- "خان السبيل"، بالقاهرة. وهو بناء أيوّبي يوجد شمال "باب الفتوح". وبه أيضا بئر وساقية وحوض.

- هل تعرف غيره؟

- به مسجد أيضا. فأنا أشترط نظافة المراحيض أيضا. فهناك من أصحاب الفنادق من يفرض عليك تنظيف مرحاضك بنفسك. في حين أن الجاري هو تكلّف صاحب الفندق بنظافة المرحاض.

- ذلك رهين بعقد الكراء.

- أنا لا أكتري منزلا حتى أتكلف بنظافة بئره ومراحيضه. تنظيف الفندق من مسؤولية المالك.

- للأسف ليس في شرعنا ما يفيدنا في ذلك.

- طيب، أذكر فندقا آخر.

- أنصت جيدا، سأدلك على فندق شديد الألفة. هذا فندق تشرف عليه امرأة. سبق أن أقمت فيه ثلاث ليال عندما زرت مصر منذ خمس سنوات. والمصريون يعتنون بفنادقهم جيدا. سيكون الآن في حال جيدة. لا أشك في هذا الأمر. وهو فندق لا يقبل عليه الناس كثيرا، ربما لأن الإشراف على فندق من طرف امرأة مهنة محل شبهة. وهناك من الفقهاء من حذّر صراحة من أن يكون المشرف على الفندق الذي يؤوي التجار والغرباء امرأة، فذلك، في رأيهم، يؤدي إلى الزّنى. وأنا لا أتذكر أين قرأت هذا التحريم الفقهي الصريح: "إذا كانت هناك أعمال غير لائقة تقع خارج المبنى نفسه

فيجب تحريم كشف الرأس على البغايا خارج الفندق" لأنهن يُغوين النّزلاء في الداخل.

- أنا قرأت رسالة من جنيزة القاهرة تؤكد هذه السمعة السيئة للفنادق التي تتحول في أحيان كثيرة إلى مواخير. والرسالة تصف يهوديا اتهم بممارسة الجنس مع فتاة مسلمة في أحد فنادق الإسكندرية. ولحسن حظه أنه حكم عليه بالبراءة بسبب إنكار الفتاة أولا، ثم نتيجة شك القاضي في أسباب وجود هذه الفتاة في الفندق أصلا. ثم لا تنسى أن أم العز ستكون معي.

كنت شبه متأكد من أنه سيعود ليسألني عن الفندق الذي تديره امرأة. فهو من أميل الناس إلى النساء، خصوصا هذه الأيام، ويتمنى حضورهن حوله في كل مكان وزمان. فقد كان يروي لنا كثيرا عن شيوخ يتحفظ دائما عن ذكر أسمائهم رأوا نساء وأحبّوهن ثم تزوجوهن. كان يروي حكايات صريحة عن فشل زواج أحد شيوخه مما دفعه إلى التعويض عن الفشل بمجامعة النساء في الفنادق. وأذكر أيضا أنه حكى لي عن مشاهدات الطبيب العربي المسيحي "ابن بطلان" في اللاذقية وهي تحت الحكم البيزنطي. إذ كان المحتسب يجمع المومسات والغرباء، من بين البيزنطيين، الذين يرغبون في ممارسة الجنس، فيُحملون إلى خان عُدّ لإسكان الغرباء، وهناك يحصلون على شهادة مختومة بختم القسّ.

كنت أنظر إلى شفتيه وهما تنطقان بكلمات تلك الحكاية، فكان يرتسم عليها ما يشبه حركات التلذذ بتلك الحرية وبذلك الترخيص لممارسة الجنس من أعلى الهرم. أما أنا فكنت أتذوق طعم الدهشة على شفتيّ من رجل يجمع مثل تلك الحكايات ويرويها بصوت خفيض. وما أن يلاحظ تلك الدهشة ويتذوقها معي، حتى يعلّق بالقول إن الوحدة والغربة تجمع الناس في مكان واحد لم يتفقوا من قبل عن اللقاء فيه، فتولد داخلهم غريزة المصالحة بينهم وبين كل من وما يحيط بهم. هذا إضافة إلى عدم الثقة والخوف من محيطهم، فهم لا يستطيعون ترك بضاعتهم في الفنادق والخروج إلى الطرقات والبيوت، فيفضلون البقاء في الغرف، بين أبنية الفندق أو الخان. وتتفاقم مظاهر التراجع هذه إلى درجة البحث عن الشبيه في الدين أو الحرفة أو الأصل الجغرافي. فيجدون النساء والخمر في نفس ذلك المكان.

***

نهضت من مكاني متثاقلا، وأنا خائف من أن ينطق عبد الرحمان بشيء إضافي يقعدني من جديد. شيء مني أصبح خارج نفسي. شيء مني منحاز إلى النّاسخ الصادق. وعبد الرحمان صادق وليس بكاذب. بل هو الرجل الوحيد الذي منذ أن عرفته أدركت أن الصدق والكذب لا يجتمعان داخل نفس واحدة. ليس بينه وبين الصدق من

متوسط. وصدقه لا يبرز في كلامه فقط بل في صنعته أيضا. له علم في صناعته لا يفاخر به أحدا بل يهزم به الورق ويفرح به الأقلام والأحبار. وما هذا الترتيب الذي في أفكاره وأمانيه إلا دليلا على الترتيب الذي يبدعه في أموره الصناعية. لقد صنع كتبا عديدة، وأخرج إلى الوجود أحبارا وجلودا مرصّعة بخطوط ضاحكة وأقلام باكية. وكل ما قاله لي سيحدث على أحسن صنعة ووقوع. ولابد للصانع الجيد المحسن من مكان وزمان. وهذا سرّ قلق عبد الرحمان. زمانه قادم لا محالة، ومكانه هو دمشق كما تعبر اللوعة التي في عينيه وصوته. لكن عبد الرحمان رجل حائر أشد ما تكون الحيرة، ولا تنقصه سوى فكرة نيرة تنير طريقه.

لم أنهض من جنبه إلا حين تاهت به الأحلام والأمنيات. إنّ به شوق عارم للذهاب إلى العراق، إلى دار الخلافة، ومجمع المحاسن والطيبات، ومعدن الظرائف واللطائف: بغداد، رحم "أرباب الغايات في كل فن وآحاد الدهر في كل نوع". نطقها بموسيقى: "بغدااااد، بغدااااد، رغم تدني نفوذها. لقد رحل أبو القاسم بن عساكر إلى بغداد، ومنها إلى الحج، مكث ببغداد خمسة أعوام. أُعجب به العراقيون، وقالوا: ما رأينا مثله. وأكّد ذلك الإعجاب شيخه أبو الفتح المختار بن عبد الحميد حين قال: "قدم علينا هذا فلم نر مثله".

قلت له: "أنت تصعّب مهمتك كثيرا. فتارة تنوي زيارة مصر، وتارة تنوي زيارة العراق، وثالثة الشام وأم الشام دمشق". ومأتى قولي هذا أن كل من ذهب إلى بغداد وكان غريبا عنها لابد له من دليل يدله عليها. لابد لشخص يعرف الطرق جيدا. فكل من زارها عبر منها إلى مدائن أخرى. مدينة تُفتح منها طرق أخرى. فردّ عليّ قائلا: "ألم تسمع بالقول المأثور: "من لم يزر بغداد كأنه لم ير الدنيا ولا رأى الناس"؟ وأضاف: "كان يزيد بن مزيد يسامر الرشيد فقال له: يا أعرابي هل لك في هذه السكّة دار؟ قال: لا. قال: اتخذ فيها دارا فإنها سكة الدنيا". بغداد سكة الدنيا.

أجبته بجملة أقصر منها: "الأرض كلها بادية، وبغداد حاضرتها"، كما بلغنا عن أحمد بن أبي طاهر. وفي تلطف أهل بغداد نقل محمد بن علي بن محمد الورّاق: "حدثنا عبد الباقي بن قانع، قال: حدثنا خلف بن عمرو العُكبري، قال: سمعت ابن عائشة يقول: ما رأيت أحسن من تلطف أصحاب الحديث ببغداد للحديث".

نعم، كنت أرى دائما أن أهل بغداد أعقل من أهل الشام، يفوقونهم رغبة وعقلا ولطفا. كما أن شباب البغداديين فاقوا شباب البصريين والكوفيين أنفسهم. كما أنّني قطعت الشك باليقين في أن عبد الرحمان سيجد راحته ورغبته بين هؤلاء الشباب، فهو أيضا ميّال إلى اللطف والسلوك الحسن وسداد التصرف وإعمال العقل.

لما تعمّق بيننا الحوار واتسع عن رحلاته وتنقلاته المرتقبة إلى مصر ودمشق وبغداد، حدثني عن كتاب "تاريخ مدينة السّلام، وأخبار محدّثيها وذكر قُطّانها العلماء من غير أهلها ووارديها" للإمام الحافظ الخطيب البغدادي. فوقفت معه عند حكاية رواها محمد بن إسماعيل بن العبّاس الورّاق عن نفسه، يقول فيها إنه طرق باب محمد بن صاعد، فقال له: من ذا؟ فقال: أنا أبو بكر بن أبي علي، يحيى ههنا؟ فسمعه يقول للجارية: هاتي النّعل حتى أخرج إلى هذا الجاهل الذي يكنّي نفسه وأباه ويسميني فأصفعه. وكانت حكاية ابن العباس الورّاق ذريعته في نفي اللطف الكامل على أهل بغداد. قلت له مازحا: تأكد من هذه الرواية، ومصدرك واحد هو بن العباس نفسه الذي يرقد بـ"باب حرب". فضحكنا معا. وعندما خفتت ضحكته قال: لا، سأزور قبر أبو الحسن الورّاق، الصدوق المقل.

كان عبد الرحمان شديد الاهتمام بالرسالة. لقد قرأت كل ما يدور في رأسه. فهو يريد أن يقصد مصر، لا العراق، ولا دمشق، لما بلغه من حروب في بغداد ودمشق وحلب، فالرؤوس تقطع هناك والبطون تُبقر وتُجذب مصارينها، والأخطاء، من كل صنف ونوع، تُرتكب في كل صباح ومساء. في كل حين يحدث الهجوم، والقتل، والأسر، والسبي والنهب، فيعود المنتصر بعد أيام وقد ترك الحاضرة صفرا. الناس تهرب في البحر بعد الحادثة، ومن

يسلم يختفي، أما الصدور فتضيق عند سماع الخبر المكروه. ثم يعود المنهزم ويصبح منتصرا والمنتصر يصبح منهزما. بل إن حروب نور الدين وصلت إلى بعلبك. طالب بها، وكاتب حاكميه بخصوصها. القلاع تسقط ويُولّى عليها رجال يُستنزلون بعد الولاية. فيُولّى بعد ذلك أبناء وصغار السن على شؤون المدن والقلاع والدواوين يسوسونها أسوأ سياسة. والمؤرخون يكتبون ما رأوه وسمعوه، فمنهم من يخلط الوهم بالحقيقة، ومنهم من يكتب خائفا على رأس أو مصلحة، أو ناصرا ملكا أو واليا لمجرد النصر.

قال عبد الرحمان الناسخ معلقا وعارضا معرفته بما يجري في دمشق والشام عموما: "وهناك أناس يُركبون الحمير بعد حلق لحاهم، فيُطاف بهم في أسواق دمشق ويُنادى عليهم: هذا جزاء كل خائن ونمّام". في إشارة واضحة إلى واقعة ولي مشارفة الديوان بدمشق "أبو سالم بن همّام"، الذي عوقب على خيانته بهذه الطريقة قبل نفيه إلى حلب.

ثم عاد الناسخ إلى رسالة الملك نور الدين. وقال: عجبي، ملك يخوض الحروب، ويُنزل العقاب، أشد العقاب بمن خانه، ويوصي بنسخ كتاب "تاريخ دمشق". إنه عقل يسير في كل الاتجاهات. وطلب مني أن يحتفظ بالرسالة، لكنني اقترحت عليه نسخها مع

الحرص على تقليد خط كاتبها، فذلك أفضل، لأنه سيقلد خطّ ملك بين النصر والهزيمة. لكنه عوض نسخ رسالة الملك جمع أغراضه ورحل عن بيتي حين ذهبت إلى السوق باكرا. غير أنني وجدت تقييدا بخط يده على ورقة سقطت منه ولم ينتبه إليها، وفيها إعلان عن انسحابه من المشاركة في نسخ "التاريخ الكبير":

"لا يمكن أن يكون مضيفي سيئا طالما ولد بين هذه الحجرات. لكن أمره لي بأن أقلل من ساعات العمل ليلا اقتصادا لنور الشموع أزعجني جدا. أدخلني إلى هذه الغرفة المتوسطة وكأنه يقدم لي هدية. لقد ولد هنا، تحت هذا السقف الأبيض. طوال اليوم يكون النور كافيا للقراءة والكتابة. فبالنسبة للذي يحبذ القراءة في النهار فهي غرفة مناسبة. لكن بعد مدة من المبيت والعمل فيها، بدأت أشعر بالضيق والحرج. كما بدأت أشعر بالاكتظاظ الرهيب من حولي. فإمكانية الانفراد قليلة جدا، خاصة في الصباح. تخرج زوجته أم العيد وأبناؤها، وزوجات إخوته وأبناؤهم للركض والقفز والصراخ. وفي الليل يكون النور الكافي للنسخ غير متوفر. النوافذ صغيرة في هذه الغرفة، أما نوافذ الغرف الأخرى فهي جوانية، وأغلبها مغطى بالورق أو غيره. وتلك أصبحت مشكلة عويصة. لكن ليس هذا ما ضاعف من ضيقي، بل تلك الورقة التي وجدتها تحت الباب وقد كُتب عليها: "حاول التقليل من استخدام نور السراج. اقرأ واكتب على ضوء القمر". إنه خط مضيفي. اليوم أثار انتباهي إلى النور

والضوء، وغدا سيكلمني عن أجر السكن والطعام. سيصبح سيدا لي.

لابد أن أرحل وليكلف نفسه بنسخ كتاب "تاريخ دمشق". ما لي أنا ودمشق وتاريخها وحروب ملكها وكتب مؤرخها. لكن إلى أين أذهب بعدما أجرت وراقتي لابن الراوي؟ جالت عيناي على ما كان موجودا في الغرفة: أقلام على المائدة، وأوراق، وحصير، وآنية للوضوء، وجرّة ماء، وقدحا للشرب، ونافذة يصل منها ضوء قليل. طويت الورقة التي كتبت عليها تعليمات الاكتفاء بضوء القمر ووضعتها فوق رفّ الكتب الذي في الزاوية. هل سأستطيع الشروع في نسخ المجلدات الأولى من أجزاء "تاريخ دمشق" في هذه الظروف، وخلال سنتين فقط؟ لا، لا غير ممكن.

فكرت مباشرة في الانتقال للإقامة في أحد الفنادق. فغيرت فكرتي، فالفنادق مليئة بالدواب، خصوصا بعد تأكيد القضاة منع الدواب في الشوارع وأمام المساجد لأسباب صحية، فوجب حصرها في الفنادق والإسطبلات. إضافة إلى دواب النزلاء من التجار والعابرين. كما أن هناك الكثير من الضجيج والنزاعات والحرائق في الفنادق.

طوال الليل وأنا أفكر. عليّ أن أفهم مغزى "ورقة ضوء القمر". لا بد أن أفهم ذلك التصرف. فأنا لم أعبث بغرفته، فقد تركتها كما

كانت، لم أغير شيئا. لم أنقل ما كان موجودا من مكان إلى مكان. حتى النافذة تركت عليها قطعة القماش التي تتدلى منها. السرير بقي مكانه منذ شرائه من السوق. وكل جهودي لنقله إلى الجهة المقابلة للباب باءت بالفشل. فالسرير ثقيل ولا أستطيع نقله لوحدي. لا بد من جهد مشترك لحمله. بل إنني لاحظت أن أخ مضيفي يكلمني بعجرفة كلما التقيت به في باحة البيت خارجا من الغرف الأخرى. في اليوم الأول من مجيئي إلى البيت كان لطيفا ومرحا، لكن منذ ذلك الوقت تغير، لابد أن شيئا ما حدث ولم أنتبه إليه، فأنا أعترف بسذاجتي. هل لأنني تركت جانبا نسخ كتاب يضم مجموعة من أشعار "علي بن جبلة" الملقب بـ"العكوّك". ليس مجموعة أشعار بل كل ما كتبه. فهو شاعر ضرير، وشهرته لا تكاد تتجاوز المقربين. كان قد طلب نسخة منذ عشرين يوما تقريبا، عندما جاء رفقة أخيه إلى ورّاقتي وطلبا نسخ الكتاب الصغير، القليل الورق. وفي اليوم الثاني من إقامتي عندهم سألني عن كتاب "العكوّك" فاعترفت له بسذاجة بأن أخاه رشحني ضمن مجموعة من النسّاخ للقيام بنسخ كتاب "التاريخ الكبير" لابن عساكر، وأمامي سنتين لنسخ عشرة أجزاء، وهو عمل شاق. لذلك فقد تركت جانبا كل الكتب الذي اتفقت مع أصحابها على نسخها.

أما زوجته فقد كانت غامضة وغاضبة، بعد أن كانت تحاول تقديم نفسها كامرأة لطيفة. فمنذ مجيئي وهي تفكر كيف تحمي بيتها

مني، ومن أي غريب محتمل. خصوصا بعد علمها بأن زوجها يبحث عن نساخ آخرين ينضمون إلى مشروع نسخ كتاب ابن عساكر. وأنا اليوم خائف من أن تبدأ في تجريب وسائل أخرى لطردي من البيت. إن بقائي هنا هو مضيعة للوقت ولمعنى كل شيء أنوي القيام به. لقد أحسست أنها مستعدة لفعل أي شيء كي تنهي إقامتي في بيتها. وها أنا أنهي إقامتي وأرحل".

قرأت هذه الورقة بضيق شديد، بحزن. لقد أصبح عبد الرحمان شخصا غريبا عني. وهاهو اليوم يترك ورقة ويرحل حتى دون وداع. وقد رحل معه حلم كامل مشترك، وروح عميقة طاهرة.

5

الناسخ الفاسي يرحل وحيدا إلى دمشق ويصرخ: "خطي أحسن من حظي"



قال رسول الله: "ببكاء الأقلام تبتسم الكتب"

"حُكي أن ملك الروم قال: ما حسدت العرب على شيء كالحسد على أشكال خطوطهم"

"محاضرات الأدباء"
أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني

جالينوس: الخط كلام ميت واللفظ كلام حي.

قيل: رداءة الخط إحدى الزمانتين.



بعد أن تخلى عبد الرحمان الناسخ عن الانتقال معي إلى دمشق، جئت وحدي.

وصلت إلى أم الشـــام وتركت ورائي أبنائي وزوجتي أم العيد. بدأت على الفور أخوض رحلة البحث عن أسواق الوراقين. قصدت أسواق دمشق بحثا عن الورق بأثمان منخفضة، بعدما وصلني خبر صفقات جيدة كانت من حظ ورّاقين قدموا من كل أطراف الأرض. نزلـــت في خان كان يقيم فيه بعض أعوان الســلطان. في المســاء سمعت صراخا وضربا على الجدران والأبواب، فأحد التجار سُرق منـــه حماره الذي أودعه عند الخانـــي. وهربا من الضجيج والقيظ الذي كان شـــديدا تلك الأيام صعدت إلى سطح الخان حيث وجدت بيوتا من الأخصاص كالغرف يُســتراح فيها من أذى الحر، فنمت هناك.

كان الطابق السفلي للخان معدًّا لخزن البضائع وإناخة الدّواب، ممـــا زاد في ارتفاع حرارة الغرف، خصوصاً الســفلية منها التي

تفتح نوافذها على الدّاخل. وفي أحيان كثيرة، ولإنعاش الأنشطة التجارية، كان التجار يمارسون نشاطهم في الفناء وفي ظل الأروقة المحيطة، بل وأحيانا في الغرف العلوية التي كانت تنقل أحاديثهم ومشاكساتهم إلى الخارج عبر النوافذ المطلة على الشارع. كانت تلك السنة مليئة بالأهوال؛ ففي فندق مجاور للخان الذي أقمت فيه قال لي أحد التجار أنه شبّ حريق هلك فيه ثلاثة تجّار وسبعة جمال. فخطر الحريق في الخانات والفنادق وارد جدًّا، خصوصا عندما تحشر تلك المباني بالكثير من الناس والحيوانات والبضائع، مما يضطر الحرّاس إلى إغلاق الأبواب في الليل. على المرء أن يتصور فندقا، أو خانا، حشرت فيه بضاعة من الزيت والثوب.

وأنا أستعرض في ذاكرتي الحرائق والمصائب شعرت بالبرد. هذا الشهر من أبرد شهور السنة. لم أخرج إلى السوق كما كان مقررا لشراء سكين البري والدواة والمداد. فسواء رحلت أو بقيت في دمشق لابد من شراء أغراض النسخ. فأثناء جولتي في اليوم السابق في السوق رأيت مجموعة من الكتاب وأهل الإنشاء وكُتَّاب الأموال يقفون في صف طويل أمام حانوت ناسخ مغربي يعيش في دمشق منذ عشرين عاما. سبق لعبد الرحمان أن نصحني بالبحث عنه في سوق الوراقين. تعرفت عليه في السوق واسمه ابن الريَّاشي. كان الناس يتخيرون آلات النسخ والكتابة. زرته قبل يومين، وسرَّ إلَيَّ في أذني أن أمرَّ عليه يوم الخميس في الصباح الباكر لأجد

أغراضـــي تنتظرني. فما يتعامل به أهل عصــري ويعتادونه من آلات النســخ، وما جرّبته أنا أيضا واستعملته وألفته لا يتجاوز دواة من أجود العيدان وأرفعها ثمنا كالأبنوس، والسَّماســم، والصَّندل. وما وجدته عند ابن الرياشي قبل يومين لا يتعدَّى دُويّ من النحاس الأصفر، والفولاذ مبالغ في تحســينها قصد رفع ثمنها. وأما سكين البــري فينبغي أن تكون من أجود الفولاذ وأحدّه وأعتقه. أما نوعها وشــكل وسطها ولون مقبضها فهو ما سأحدث فيه ابن الرياشي في حانوته. وعليَّ أيضا عدم نسيان ســكين أخرى تصلح للقطّ، وهي غير سكين البري والنحت.

فـــي غرفتي، قمت إلى الصندوق وأخرجت ســكينا قديمة للقطّ كانت عندي منذ أيام نسخي لدواوين الشعر وبعض فصول الكتب. لم تعد حادّة كما كانت، يكفي أن أســقيها بالزيت لتعود إلى ســابق عهدهــا. لكنها قديمــة ولم تعد صالحة وربما تلحق الفســاد بالقلم. لكن رغم حالها السيئ ســتبقى معي، في صندوقي الذي أجمع فيه أغراضي. ســيكون في عدتي قلم واحد ودواة واحدة وسكين واحد للبري وواحد آخر للقط. ولا حاجة بي إلى الإكثار منها. فذلك ديدن الملوك الذين يفضلون امتلاك سبعة أقلام، ففي هذا العدد تفاؤل لهم بملك السبعة أقاليم. أما أنا فرجل توحيدي، أوحّد اللـه تعالى وأوحّد النفس والقلب، وفي ذلك كثرة أرفع وأوسع من سبعة أقاليم.

سجلت تلك الأغراض على ظهر ورقة صغيرة، وأضفت عليها شيئا نسيته: المداد. والمداد الذي جئت به معي هو المداد الفاسي الجيّد. فنسخ ثمانية أجزاء من كتاب "تاريخ دمشق" يحتاج إلى الكثير من المداد وإلى آلات وأدوات جيدة. وزاد من تقديري لمهمتي أن ابن عساكر اقترح اسمي بين تسعة نُسّاخ آخرين. ابن عساكر يعرف اسمي هذا ما جعلني اندفع نحو الباب في اتجاه ورّاقة ابن الرياشي. وأنا أعرف أنني عندما أبتدئ فلن أنتهي. وأنني أنتظر تلك البداية بخوف بالغ، الشيء الذي يتطلب مني شجاعة فائقة.

الثقة، هذا هو السلاح الجيد. العمل ليس لعبة. أقسم بالله أنني لم أقل شيئا مماثلا من قبل. لكن ها إني بشعور مفعم أقوله اليوم بعد تقدير جسامة المهمة الموكلة إلي. إن عرقلة عملي هو خيانة، ومن يقوم بها هو خائن. شيء غريب هذا الذي يحدث. نحب أناسا ونأكل ونشرب معهم ونقيم تحت سقوفهم، وفجأة نقف منهم موقف الأغراب. كنت أتمنى أن يكون ذلك مجرد افتراض، أو على أحسن تقدير فكرة نصفها صحيح. كلهم يطلبون منك العيش من خلال ضمير الغائب. مهمة النسخ نفسها هي تجسيد لضمير الغائب. غير أن الشجاعة والتفاؤل يفترضان الوقوف وأخذ النفس والتفكّر فيما يجري. فعندما تحس بوجود مصاعب تعترضك ليس معناه أنها بدأت فعلا تعمل ضدك. يمكن لشخص أن يقطع عليك الحديث وأنت في غمرة الحكي، لكن لا يمكنه أن يمدّ يده ويأخذ من أمامك القلم

والحبر والكتب والأوراق وباقي آلات العمل. وخصوصا لا يمكن أن ينتزع منك، مهما كانت قوته، اتفاقا أجريته يخص مشروعا أو عملا تنوي القيام به. هذا ما ينبغي فهمه. وإن بقيت أعتبر كل صغيرة وكبيرة عقبة أمام عملي فإنني في الأخير سأغترب عن نفسي. هناك صوت في داخلي أخذ على عاتقه مناداتي والحديث معي في مختلف القضايا. صوت غير خائف. طالما كنت أعتبر النداء الداخلي أمر غير ضروري، والمهم هو تكييف الأصوات الخارجية، رغم تنافرها، مع رغبتك وإيمانك. لكن اليوم، لا، الأمر مختلف، في ظروف أصبح فيها الاغتراب عن النفس من أقرب الآفات. فجأة كلمني صوت في داخلي: القادمون إلى دمشق يمدحونها.

عدت مرة أخرى إلى ابن الرياشي. وصلت إلى ورّاقته، الباب موصد إلى نصفه. نظرت في البداية من الثقب. لم أر شيئا، فالظلمة شديدة وثقب الباب غير موجه مباشرة إلى قلب الورّاقة. أين يجلس ابن الرياشي؟ من معه في الداخل؟ لماذا وارب الباب على غير عادته؟

كان يفد على ورّاقته طلبة من البربر قدموا دمشق للدراسة، يجلسهم على طاولات ويكلفهم بنسخ الأمهات والدواوين. كانت خطوطهم بدوية، رديئة. وما ينسخونه يكون كثير الفساد والتصحيف،

فيقوم هو بإصلاح الفاسد فيها. لا أعمم قولي على كل الطلبة البربر، فقد كان من بينهم خطاطون مقبولون. طرقت الباب طرقة تكاد لا تسمع. بعدها مباشرة ظهر وجه ابن الريّاشي مبتسما. فتح الباب كاملا فتبين لي أن الورّاقة فارغة، لا وجود لشخص ولا لطالب بربري أو عربي. سألته ماذا كان يفعل في هذا الصمت والظلمة والباب مواربا على غير العادة. أجابني بأنه يبحث عن كتاب سيأتي ابن الإشبيلي، الخطّاط المزخرف، ليأخذه قصد تزيينه وتذهيبه. وبعده سيأتي السبتي الرياحي لأخذ هذا الكتاب في الفقه المالكي، وكلهم فقهاء وقضاة مغاربة يقيمون في دمشق. فالناس يريدون مثل هذه الكتب بخط يده. وقال إنه جمع لي حزمة من الآلات حسب الاتفاق السابق لآخذها وأبحثها في غرفتي. ثم أضاف بأنه سيذهب إلى ابن الصقر الأنصاري، واقترح علي أن أرافقه إليه، فحانوته بغربي الجامع. سألته هل هو من نسخ" كتاب الاستذكار" لابن عبد البر، أجابني مقاطعا وعابسا: لا، لا إنه عبد الملك اللخمي، وأنا أذكر تلك الليلة التي أكمل فيها نسخه في وسط رجب عام 498 هـ. كنت أريد الاعتذار له على مرافقته، فأنا عازم على القيام بجولة كاملة في السوق. لكنني ترددت.

أخذت حاجتي منه وسلمته بعض المال على أن أسلمه الباقي بعد عودتي إلى غرفتي والتأكد من بضاعتي، ورافقته إلى الحانوت الواقع غربي الجامع. كان يسرع الخطى، مشغول البال. فيما بقيت

أنا طوال الطريق أفكر كيف أصبحت أخطئ في الكتب ومن حقّقها. ذاكرتي آلة بدأت تبلى هذه الأيام. لقد أصبحت قليل الرقاد كثير السهر.

طردت هذه الهواجس وسألت ابن الريّاشي: "متى تروي كل ما سمعت؟" ابتسم والتفت يمينا وشمالا وهمس لي كأنه ينذر بكارثة: "ألا تعلم أنني عزمت على التّحديث، فشرعت في ذلك منذ شهر تقريبا. أليس لك علم بذلك؟".

خجلت أيما خجل. ففي الأولى أخطأت في اسم من نسخ "كتاب الاستذكار"، فنسبت النسخ لابن الصقر الأنصاري، والثانية، وهي الكبرى، ليس لي علم بأن ابن الرياشي أصبح يحدّث. أضفت قائلا: "فأنت إمام المحدثين، لك رياسة في الحفظ والإتقان، والمعرفة التامة بعلم الحديث، والثقة والنبل، وحسن التصنيف والتجويد". ملأته كلماتي ثقة واعتزازا. فجرّني من يدي وقال: "إذن بعد زيارة الأنصاري سترافقني إلى المسجد لتحضر رفقتي اليوم. سأعرفك على عديد ممن كنت تنوي التعرف عليهم." قلت: "على بركة اللـه".

وصلنـا إلى حانوت ابن الصقر. لمـاذا قدمت إلى هنا رفقة ابن الريّاشـي مع أن ذلك لم يكن مقررا؟ ابن الريّاشـي شخص يجتهد لجلب السـعادة إلى أصدقائه ومعارفه. وزيارتي له اليوم سـتكون

مناسبة لمعرفة العديد من الأشـياء. فهو رجل شديد الاطلاع على ما يحدث في البلدان العربية من مغاربها إلى مشـارقها. سـأنتظر حتى نعود إلى ورّاقته ثم أسـأله ضالتي. فلن نمكث طويلا عند ابن الصقر، فكما أخبرني فهو على موعد مسبق مع ابن الإشبيلي وبعد ذلك مع السبتي الرياحي.

منذ البداية أردت أن أسأله عن مدينة دمشق، التي سأنسخ أجزاء من كتاب عظيم كتب عنها. منذ كُلِّفت بهذه المهمة واسم المدينة يحضر في ذهني مليئا بالإيقاعات والأوزان. مثلما يحضر اسم الحافظ ابن عساكر. وابن الرياشي لا يُستغنى عنه في مثل هذه الأمور، فهو مقيم في دمشق أكثر من عشرين عاما، أقام فيها في المرة الأولى عشر سنوات بالتمام والكمال. ثم هجرها إلى بغداد، وعاد إليها، ولم يعد يستطيع الابتعاد عنها ميلا واحدا. له هناك في المغرب، حسب ما قاله لي عبد الرحمان، العديد من الأصدقاء والأحبّة الذين يسأل عنهم ويسألون عنه. لقد انتقلت إلى دمشق. نعم، لابد من الاقتراب والاحتكاك بمدينة سأكتبها بخط يدي. بيدي هذه التي تبدأ في الارتعاش كلما ذُكر اسم هذه المدينة.

ألقى ابن الرياشـي التحية على ابن الصقر الذي كان معتكفا في الداخل. مكث معه وقتا قصيرا، ثم خرج وهو يعيد ترتيب برنسـه. ابن الرياشـي عارف أيضا بمسـائل أخرى: الفنـادق، بل الفنادق

التي تحســـن إسكان الغريب. فكان عليّ أن أرتب الأمور التي أريد أن أســـأله فيها وعنها. الفندق أولا. فندق يحســـن إسكاني، فأنا بي شـــوق إلى نومة مستغرقة. بعد ذلك أعود إليه وأسأله عن دمشق أمّ الشام.

ما أن ابتعدنا عن ورّاقة ابن الصقر حتى بدأت رائحة الجلود تستقر في أنفي. لم أشمها عندما كنت أمام الباب، ربما لأنني كنت مستغرقا في التفكّر. أنا لا ألوم نفسي، فهي من عليه أن يلومني. لقد أثقلتها بهموم كثيرة. فها هي اليوم شريدة، وأمامها عمل كثير لتنجزه. لنفسي عليّ حقّ.

ما أعرفه عن ابن الصقر أنه يجيد اختيار صفات المداد. يحكى عنه صناعته المتقنة للحبر. كان يأخذ، وهو في المغرب، كما حكي لي، من المداد الفاســـيّ الجيد فيسحقه بلبن حليب ثلاثة أيام، وكلما جفّ ســـقاه لبنا، ثم يســـحقه ويصيّره صحائـــف. ذات ليلة فيما كنا ضيوفا على وليمة أقامها لنا ابن عمه "اليزيد" في بيته بفاس، حدثنا طيلة مدّة غير يسيرة من الزمن عن صفات المداد. أذكر أنه تحدث عن المداد الكوفي، والهندي، والفارســـي، والتونراني. ولأول مرة أســـمع من "اليزيد" وصفة الحبر الذي يصنع خصيصا للملوك. إلا أن ابن الرياشي خلال تلك الزيارة الخاطفة فاخره بإتقانه تهيئ مداد إذا كتب به الناسخ على الذهب والفضة وقرّبه من النار فإن الكتابة

تظهــر خضراء كأنها الريحان. وفاخره ابــن الصقر بتهييء مداد إذا كتــب به الخطّاط على النحاس تخــرج الكتابة بيضاء كالفضة. فيما فاخرهما صانع آخر مجهول الاســم والنســب كان يومها في حانوت ابن الصقر بصناعة مداد إذا كُتب به على أواني الرصاص أو الفضة أو الذهب أو النحــاس أو القزدير، فإذا جفت الكتابة وتم مسحها بخرقة صوف فإن الكتابة تظهرها سوداء برّاقة.

بقيت أفواههم مفتوحة تذكر صفات المداد وأنواعه إلى أن قُدم لنا مضيفنا طعاما فصمتت وأُغلقت. غير أنني أعترف أن ابن الرياشي كان سيد الكلام، فوصفته عن أفضل مداد كانت ميسّرة وبسيطة وموادها في متناول اليد. كما كان متألقا في سخريته من مداد الملوك.

كان الحانوت يضم السرير والمطبخ والمعمل. وهذا ما أدهشني. بعد مغادرتنا دعاني ابن الرياشي لأخذ ما يلزم وإكمال الحديث في الجامع. إلا أنني اعتذرت واستأذنته في الرجوع إليه في الغد لإكمال المال واستشارته في العديد من الخواطر التي كانت تملأ قلبي وعقلي. قال مرحبا: "أهلا بك في أي وقت. أنا الآن متوجه إلى الجامع. أما أنت فخذ قسطا من الراحة وأنا في انتظارك غدا في الجامع لأداء صلاة الفجر".

توجهت على الفور إلى الفندق القريب من السوق. لكن سرعان

ما أقفلت راجعا من منتصف الطريق. كيف أذهب دون ذخيرة من الكتب. لابد أن يكون معي كتابا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وترجمة للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ولمن كان حولهم ومعهم. وهي تراجم طويلة مستوفاة وكأنها تاريخ للتاريخ كله، سمعت أنها موجودة بوفرة في أسواق دمشق.

وجدت الكتب أمامي، عند أول بائع كتب، كأنها تنتظرني. لما عرف البائع أنني مغربي سألني وهو متعطش عن أخبار فاس وأهل المغرب عموما. قال إنه زار فاس منذ عشر سنوات وأقام عند ابن عمه المتزوج بامرأة مغربية. كنت أستمع إليه وانتظر اللحظة التي يسكت فيها لأغادر. جاءت اللحظة المرتجاة. صمت الرجل وهو ينتظر ردا على ما قاله لي. لكنني بسطت له يدي مودعا.

عدت مسرعا إلى الجامع حيث يحدّث ابن الرياشي. الجامع أولا ثم الفندق ثانيا. قلت لنفسي: "ستنسخ جزءا من كتاب دمشق، أمّ الشام، عاصمة الحياة العربية، للحافظ ابن عساكر. هيا غيّر عاداتك وبدّل سلوكك وارحل من هنا". وجدت ابن الرياشي في قلب دائرة من الطلبة ورجال يطلبون العلم من مختلف الأعمار. لم يكن ابن الرياشي معزولا عن عالمهم وحياتهم. فهو يعرفهم ويعرفونه. وربما هم من طلبوه للقيام بمهمة التحديث. هم من اختاروه. إضافة إلى تأييد الشيوخ ورؤساء البلد له. رأيت وجوها مألوفة ممن كانوا

يقبلون على نسخ الكتب واستعارتها وبيعها في سوق الورق. لقد وجدوا في ابن الرياشي أغنى مصدر لهم ولما يطلبونه من غايات علمية.

لم يكن لائقا أن أعطيه الورقة التي سجلت عليها بعض الكتب التي لم أعثر عليها في السوق وهو في غمرة التحديث. خصوصا وأنه كان يركز كثيرا في التواريخ. وكان يقدم ترجمات لشخصيات عديدة، فذكرها بعد أن رتبها على حروف الهجاء. بدأ بمن اسمه أحمد، ثم من اسمه إبراهيم، مشددا على ذكر أسماء آبائهم وأجدادهم، وأردف ذلك بمن عرف بكنيته. ثم ذكر أيضا نسوة وإماء وشواعر. استشهد بأقوال وأبيات شعرية وأحداث وتواريخ. كنت معجبا بطريقة عرضه لمادته. فهو لم يكن يسقها على أنها نتيجة مطالعاته وقراءاته، أو كونها خلاصة أفكاره وتأملاته واطّلاعه. بل كان يعرض مادته ويسندها في كل جزئية من جزئياتها. وكان يذكر أيضا تعدد أنماط الخبر وتعدد الأسانيد.

ابن الرياشي، منذ عرفته رغم حداثة معرفتي به، شديد الإعجاب بطريقة ومنهجية أصحاب الحديث في أسلوبهم في الإسناد. وعلى كل حال كانت تلك هي الطريقة السائدة في أيامنا هذه. فكيف أوقف شخصا مستغرقا إلى هذا الحد؟

انتظرت حتى النهاية. جمع السجادة التي كان يقتعدها وقام

متوجها إليّ، شاقا طريقا له بين الجالسين المخلصين، بل مندفعا وهو ينظر إليّ بلهفة، بين أرجل الجالسين. سألني عن الأمر الطارئ الذي جعلني أعود إليه. طمأنته وسلمته الورقة وأنا ألحّ عليه في طلبي. ابتسم وقال لي بأن أمرّ عليه في فجر يوم غد. قلت إن شاء الله. وأكد على الموعد: "قبل الفجر"، لقد فاجأني بقوله إنه ربما سيسافر إلى بغداد، ومنها إلى فاس ليستقر فيها شهرا أو شهرين.

توجهت إلى فندق الناحية. علي أن أبيت فيه. لن أعود وأجد في الغرفة "ورقة ضوء القمر" أخرى. وقد أجد هذه المرّة ورقة تطالبني بأداء أجر المبيت. فقد أمضيت بضعة ليال في تلك الحجرة المحظورة. لاحظت أنها حجرة تتم مراقبتها من بعيد، دون أي محاولة للاقتراب منها، بله ولوجها. فهل سأكون أنا الغريب قتيل الهم والحزن؟ بدأت منذ مدّة غير يسيرة أقرأ شعر ابن عساكر، فحضرني من كل شعره هذا البيت:

فإن أعش فلعلّ الله يجمعنا وإن أمت فقتيل الهمّ والحزن



6

الناسخ في دمشق ينهض ويقعد ولا يعارض



"... فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا، فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرّب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة. فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصّر إلا من يدين بالعجز والتسويف، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه، وإنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنّم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والولد وقرع سنّ الندم على زمن التضييع، والله يوفق ويرشد، لا إله سواه، وقد نصحت إن ألفيت سامعا، وناديت إن أسمعت مجيبا، "ومن يهد الله فهو المهتد" جلّت قدرته، وتعالى جدّه".

ابن جبير، "رحلة ابن جبير"



كدت وأنا في غرفتي الدمشقية أن أبلغ قرار أعماق نفسي. وإن نفسي لشيء له قعر وأعماق غائرة، سحيقة. مضاءة أحسن ما تكون الإضاءة، والمظلم منها جزء يسير، لكنه يكبر ويتسع في أوقات كثيرة. ابن الرياشي سيسافر إلى بغداد، وابن صقر رجل غامض. لكن السؤال الذي آلمني هو لماذا أتيت إلى أم الشام بعد أن ضربت أكباد الإبل من أقاصي البلاد. عن ماذا أسأل؟ إن كان نسخ أجزاء من كتاب "تاريخ دمشق" فذلك أمر يُقام به من فاس. فاس التي بلغتني فيها أنباء من كل الأرض، وأحببت تحت سمائها الكثير من الناس. غادرتها بحثا عن الحافظ للقاء به، ولأزوّد نشاطي في نسخ الكتب بطاقة جديدة، ليبزغ من جديد ضوء يكلّلني. لأقول الشعر مجددا بعد أن كان ينهاني أخي الأكبر، ولمّا تعب من النهي أعطاني ألف دينار فخرجت إلى أخوالي في البادية مخافة أن يهيجني مقامي بها على قول الشعر. ونزولي اليوم إلى قرار نفسي في دمشق أعادني مهتاجا إلى القول.

ماذا تساوي هجراتي ومروري بالبلدان والقرى والمدن أمام هجرات الحافظ ابن عساكر الذي رحل عن دمشق رغبة في طلب الحديث وتلقي الأسانيد العالية. فعلماء المسلمين منتشرون في كافة الأصقاع، في كل المساجد والمدارس ومقرات إقامة الفقهاء والعلماء والمحدثين. فبعد أن لزم الحافظ علماء دمشق وفقهاءها وكبار محدثيها مكثفا الطلب منهم، وراويا الحديث عليهم وهو بعد في مقتبل العمر، قرّر وعزم على التوجه إلى مراكز أخرى فتوجه نحو الشرق وبلاد العجم، فسمع بأصبهان، ونيسابور، وتبريز، وميهنة، وبيهق، وخسروجرد، وبسطام، ودامغان، وزنجان، وهمذان، وأسداباذ، وبغ، وبون، وبوشنج، وسرخس، ونوقان، وسمنان، وأبهر، ومرند، وخويّ، وحلوان، وأرجيش ومراكز عدة يصعب حصرها كلها. كما توجه إلى بلاد خراسان على طريق أذربيجان، والتقى في نيسابور بالسمعاني، الذي قال فيه: أبو القاسم كثير العلم، غزير الفضل، حافظ متقن، ديّن، خيّر، حسن السمت، جمع بين معرفة المتون والأسانيد، صحيح القراءة، متثبت محتاط... جمع ما لم يجمعه غيره، وأربى على أقرانه.

لم يكن الحافظ يعارض أو يملّ أو يضجر. قال القزويني إنه كان بنيسابور يلازم عبد الله الفراوي، العالم المحدث المؤثر للعزلة، والصعب المراس والمزاج. إلّا أنه ضجر من ابن عساكر لكثرة تردده عليه وملازمته له، فروي عنه أنه القائل: "قدم ابن عساكر

فقرأ عليّ ثلاثة أيام فأكثر وأضجرني، وآليت على نفسي أن أغلق بابي، فلما أصبحنا قدم علي شخص فقال: أنا رسول الله، فقلت: مرحبا بك، فقال، قال لي في النوم: امض إلى الفراوي وقل له: قدم بلدكم شامي أسمر اللون يطلب حديثي فلا تملّ منه". وفي الأخير، بعد طول المعاشرة والمصاحبة العلمية، أصبح الفرّاوي لا يقوم حتى يقوم الحافظ.

***

ساحات وأرجاء وهواء ثقيل تتنفس فيه نفسا ثقيلا. إلا أن الناس هنا محبّون للغرباء، مكرمون للفقراء. وأهل قراها يشبهونهم. إلا بعض المناظر التي شدّت انتباهي لشذوذها وغرابتها. فقد نزلت وجلت بأسواق دمشق المنتظمة الحافلة، والشديدة الترتيب، وزاد من جمالها وبرودة جوها سقفها الخشبي. ففيها ظل بارد. قباب بهية مصنوعة من الجص أثارت عقلي وقلبي. شوارع كبيرة تؤدي كلها إلى جامع السوق. بئر عذبة تحت كل قبّة. دهشت للخلق الكثير العدد، المتجدد النشاط، الواسع الرزق. ربما ذلك بسبب المساجد الكثيرة التي تنشر البركة. وأصغر سويقة في البلد تضم ما يكفي من العلف والخبز.

لن تنسى ذاكرتي ما حييت منظر مدينة "الرقّة" الواقعة على الفرات. ثم ما سمعتهم يطلقون عليها "رحبة مالك بن طوق" والتي

تعرف بـ"رحبة الشام"، ربما هي مدينة شهيرة، لكنني أسمع بها لأول مرة. أحسست وأنا فيها بأنها صحيحة الهواء. نهارها ندي الظل، وليلها قيل فيه: سحر كله. هذا أول منظر يخلبني منذ غادرت الزواريق.

وأنا أسير وأتجوّل لأتعرف على المدينة، رأيت جمعا من الناس يتحلقون حول رجل وجدوه يُنكح كما تنكح المرأة، ويرجموه في الأعلى والأسفل، وذلك خير من حرقه بالنار. الذكر الذي كان ينكحه لاذ بالفرار. لو يحكم الشام رجل مثل أبو بكر عبد الله بن الزبير لحُرق اللُّوطي.

في الجمهرة المتحلّقة سمعت رجلا يخاطب آخر قائلا: ما هذا العام الفاحش، لقد وجد أبناء عمومتي في باديتهم حيوانا ذكرا يأتي ذكرا آخر. فسأله مخاطبه: وماذا فعلوا بهما: قال أنهوهما عن اللّواط، وضحك بصوت عال لم يكن مناسبا لما يقع حولهما من رجم وضرب ولعنة. فأضاف الثاني إن البهيمة تتلذذ وتحس بثقل الشيء الذي على ظهرها وليس بنفاسته، فكلما كان الذكر ثقيل الوزن كلما كان لذيذا. فما هو وزن الذكر الذي كان فوق؟ فأجابه وهو يرد على سخرية خفية في كلامه: إن كسلان الذهن يحس هو الآخر من أمر الحكمة بثقل التّعب عليه ولا يحس بشرفها في نفسه وضميره. دار حديثهما السخيف وصراخ اللوطي الذي يُضرب

ويُجلد يرتفع من حولهما، وآخر يصرخ بصوت أعلى: الموت خير للوطي من الحياة.

رأيت أنه من الأفضل لي أن أغير دربي، إنه نذير شؤم سماع في بلاد الشام شعار: الموت خير من الحياة. انصرفت باكيا في داخلي. قلت: لو أتيح للراجمين مضاجعة اللوطي لما تأخروا. جاء في كتاب "البصائر والذخائر" لأبي حيان التوحيدي أن صبيا انصرف إلى أمه باكيا، فقالت له أمه: لم تبكي؟ قال: الصبيان يدخلون أصابعهم في أستي، قالت: فلم لا تشكوهم إلى المعلّم؟ قال: فأدخل أيره في أستي.

فضلت الرجوع إلى الغرفة لأستعين بقيلولة النهار على قيام الليل. فثمة عمل كثير ينتظرني. عملي يقول لي: أنا معك أدخل وأخرج معك حييت أو مُتّ. فالعمل ليس مالا آخذ منه ما شئتُ وأعطي منه ما شئتُ، وليس عشيرة تحملني وتضعني وإذا متُّ تركتني. العمل أولا، العمل أخيرا، من أجله جئت إلى أم الشام. فأنا أقتدي بمن قبلي، وإمامٌ لمن بعدي.

في هذه السنة حدثت زلزلة كبرى، جئت بعدها بأشهر قليلة. لم نسمع عنها في المغرب. زلزلة لم ير الشاميون مثلها. وقد عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق، إلّا أن أشدها وأعظمها، حسب رواية من عاشوها، كان بالشام. زلزلة

هدمت مدينة حمص، دكّت الأسوار والقلاع، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما لا يمكن عدّه ولا إحصاؤه. غير أن نور الدين سار إلى حمص وحماة وغيرهما من المدن والبلدات ليعمرها، وهو في شدّة الحذر على البلاد من الفرنج. ثم انتقل إلى حلب فوجد من الخراب ما ليس في غيرها من البلاد. سكانها بلغهم الرعب، ومن نجا يكاد يموت من تصديقه أنه نجا، فكانوا لا يقدرون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفا من عودة الزلزلة، فقد عاودتهم غير مرّة، وكان خوفهم الثاني من الفرنج بظاهر حلب. ولما رأى نور الدين ما فعلته الزلزلة باشر عمارتها بنفسه، وكان يقف على البنّائين والفعلة، وما زال كذلك حتى أحكم أسوارها، وأعاد بناء جوامعها، وقيل إنه أخرج من المال ما لا يُقدّر قدره.

لم تكن بلاد الشام مشغولة بشيء غير ما أحدثته الزلزلة وما قام به نور الدين. وقد نظم شاعر قصيدة في مدح نور الدين على صنيعه الشجاع الكريم أحفظ منها:

أتمنّى بالشام أهلي ببغدا	د وأين الشآم من بغداد
ما اعتياضي عن حبهم يعلم اللّ	هُ تعالى إلا بحب الجهاد
واشتغالي بخدمة الملك العا	دل محمود الكريم الجواد
أنا منه على سرير سروري	راتع العيش في مراد مرادي
قيّدتني بالشام منه الأيادي	والأيادي للحرّ كالأقياد

بي لوعة لزيارة أهل الورق في الشام مرة أخرى. بزيارة مساجدها وأديرتها. اجتمعت لي أخبار عنهم منذ فتح المسلمون دمشق والغوطة، وحكايات عن هدم كنائسها وإلحاقها بالمساجد. كما أن أديرتها سميت باسم قادة مسلمون. فحين نزل خالد بن الوليد بأحد الأديرة بباب دمشق الشرقي سمي دير خالد. كان أهلها يكتفون بالتحصّن وإغلاق الأبواب، تاركين آلاف الجنود على مشارفها. فقد نزل عمرو بن العاص على باب توما، ونزل شرحبيل على باب الفراديس، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية، ونزل يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير إلى الباب الذي يعرف بكيسان، وكلهم كتبوا في قراطيسهم وراء السور معاهدات صلح. وقد أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق، إذا دخلها، الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وسور مدينتهم لا يُهدّم ولا يسكن شيء من دورهم إذا أعطوا الجزية. وبعد فتح المدينة وقع الشيء الكثير لأنفس الناس ولمالهم وكنائسهم. وضرب عمر بن الخطّاب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير، وعلى أهل الورق أربعين درهما. كما خضعت بعض الكنائس للزيادة أو النقصان. فهذا معاوية بن أبي سفيان أراد أن يزيد كنيسة يوحنّا في المسجد بدمشق فأبى النصارى ذلك فتراجع وأمسك. ثم طلبها عبد الملك بن مروان في أيامه للزيادة في المسجد وبذل للنصارى مالا فرفضوا تسليمها إليه. وفي عهده جمعهم الوليد بن عبد الملك وبذل بدوره مبلغا عظيما من المال فأبوا، وهدّدهم

بهدمها، فخاطبه بعض النصارى قائلا: يا أمير المؤمنين إنّ من هدم كنيسة جنّ أو أصابته عاهة، فدعا الوليد بمعول وبدأ يهدم بعض حيطانها بيده ثم جمع النقّاضين فهدموها وأدخلها في المسجد. ولمّا استخلف عمر بن عبد العزيز شكا النصارى إليه ما فعل الوليد بهم في كنيستهم، كتب إلى عامله يأمره بردّ الكنيسة إلى حالها القديم وفصل المسجد عن المسجد، إلّا أن أهل دمشق من المسلمين كرهوا ذلك، وكان ردهم على قرار عمر بن عبد العزيز: "نهدم مسجدنا بعد أن أذنا فيه وصلينا". فذهب وفد فيه سليمان بن حبيب المحاربي وغيره من الفقهاء فأقبلوا على النصارى يسألونهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التي صارت في أيدي المسلمين على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها فقبلوا بعد أن أعجبهم الطلب، وهو أمر سرّ عمر أيما سرور.

هذه هي دمشق أمّ الشام، حروب بين جبهتين، وأنا على أرضها، أقرأ تاريخها وأرى دماءها وإن غسلت بمياه كانت تنتظرها لتحييها. وأسمع الرياح العاتية التي ضربت البلدات أماتت وهدّمت وأفزعت. من أنزل تلك الرياح القاسية وأمرها بفعل ما فعلت، والقيام بما قامت به؟ كل ما تقوم به دمشق هو الانقسام على نفسها. لكنني عشقت، منذ اليوم الأول، السير في طرقاتها ودروبها، والتجوال في أسواقها، والتعبّد في مساجدها. هناك نسيم جيد يهب لإزالة الغمّة

عن الأمّة. وأخبار تصل تسلي وتُفكّه. في دمشق لا تفكر في نفسك، بل في من تحب.

أنا الآن في دمشق المزدحمة. ومن هنا أكتب إليك.

الخصوم يوقعون ببعضهم. الحيلة سهلة النجاح. الحرب وشيكة الوقوع، كأنها تقع لأول مرّة. وابن عساكر هنا يعيش. سأراه في الأيام القادمة، ونبدأ العمل. أملي أن أزور معه هذه المدينة الفسيحة الأرجاء، البساتين والأشجار المختلفة الثمار. كيف أمكن للحرب أن تأتي إلى هنا؟ كيف جرأت؟ الآبار المعينة، الشهدية العذوبة، السلسبيلية المذاق على وشك التلوث. خوفي أيضا على دكاكينها وحوانيتها الشبيهة بالخانات والمخازن اتساعا وكبرا، فاللصوص يجوبون الليل، والحرائق تشبّ كأن الشيطان هنا في أقوى وذروة جبروته وظلمه. آثار الروم مازالت قائمة، وتشهد على عنايتهم بها. والأحقاب لم تأخذ منها شيئا كما أخذ منها أبناؤها. لبيك أيا مدينة مكانها القلب الفسيح. كيف وقع ما وقع لدمشق، مع أنها مطهرة من أهل المذاهب المنحرفة، والعقائد الفاسدة، وجادّتها في الدين واضحة؟

كيف أمكن لدمشق أن تستسلم لهذا الخراب؟ إني حائر. لقد عمّرها منذ سنين قوم من الملاحدة الإسماعيلية عددهم لا يعرفه ويحصيه إلا الله. فبدأ شرارهم يتطاير، حتى داخلت أهل المدينة

العصبية، فاستأصلوهم كما تُستأصل النبتة الشيطانية، فقطعوا دابرهم، وكُوّمت جماجمهم واحدة فوق الأخرى، رمزا لهزيمة الشيطان وانتصار شريعة الله.

هذه، عزيزتي أمّ العيد، أكثر مدينة عُرفت بخطورة قدرها، وبذكر الأزمنة لها، وبتعاقب الملوك الصالحين والطغاة الطالحين عليها. محلها في كل نفس أثير، وكفاحها على كل لسان يطير. سُلّت فيها وعليها بيض الصّفاح. فكم كانت سعادتي ستكتمل لو كنت معي على هذه الأرض العتيقة في الأزل. غيابك على هذه الدروب والطرقات والأسواق والبساتين لا أحتمله. فلولا الضرورة القصوى لما قرأت حبر كلماتي على هذه الرسالة. والضرورة القصوى هي دمشق. وحسرتي أن يكون لهذه المدينة أبناء منحرفين، يقومون بتمزيقها. ويجب أن يطلبوا الصفح من كل جدار وطريق ونفس وشجرة. لكن، يا لذكاء دمشق، يا لقوتها. إنها لا تطاوع إلا تاريخها، ولا تنطلق بقوة سوى وراء الإلهام. يا للبراعة.

دمشق مدينة مفتوحة القلب، بها ثمانية أبواب: "باب شرقي"، وهو جهة الشرق فعلا، به منارة بيضاء قيل إن عيسى عليه السلام ينزل فيها. ثم "باب توما"، وموقعه أيضا في شرق المدينة. و"باب السلامة"، و"باب الفراديس"، وهو شمالي. و"باب الفرج"، ثم "باب النصر"، ويقع في الغرب. و"باب الجابية"، وأخيرا "باب

الصغير"، وموقعه بين الغرب والقبلة. مما يعني أن دمشق مائلة للطول. وتحتوي من الخلق ما تحتويه ثلاث مدن صغيرة. وفيها أيضا عشرين مدرسة. يعني أنها مدينة علم يتربص بها الجهل.

بالأمس صاحبني رجل التقيته في المسجد الجامع يصلي ويتضرع. ولما التفت وجدني إلى جانبه، فتأمل لباسي برهة ثم سأل: الأخ مغربي؟ قلت: نعم. سألني عن مقامي بدمشق ودواعيه، أجبته بأنني جئت لألتقي الحافظ ابن عساكر. رحّب بي أيما ترحيب ودعاني إلى جولة في السوق. نهضت بسرعة أتبعه إلى الباب. ومنه إلى السوق، عبر بعض الطرق الضيقة، والمساكن المبنية من الطين والقصب. قال معلقا: لا تتصور كم من حرق شب في هذه الأحياء. النار لا تقترب سوى من بيوت القش. بيوت طبقات بعضها فوق بعض، لا تتجاوز ثلاث طبقات. توقف فجأة وقال: رافقني إلى مارستان قريب من هنا لأؤدي ثمن علاج ابن عمي، ثم نعود إلى السوق أجول بك فيه. وافقت، فهذه أيضا فرصة لزيارة مجانين دمشق.

في الطريق روى لي قصة ابن عمه المجنون، نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر، الذي كان يعلّم القرآن، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد، ممن أوتي مسحة جمال، واسمه نصر الله، وكان معلمه يهيم به، كما يهيم رجل بامرأة خطفت عقله. فزاد هيامه به

حتى اختبل، فأودي إلى هذا المارسان. لم يرض أبناؤه وزوجته زيارته وعيادته خجلا من الفضيحة التي ألحق بهم الفقيه المعلّم. وقد طلبنا منه العودة إلى مهنته وأسرته، فكان يطالب برؤية الصبي أولا. فذهبنا عند والد الصبي الذي كان يسمى نصر الله وطلبنا منه ترك الصبي يرافقنا إلى معلمه، فوافق الوالد. فذهبت وفي رفقتي الصبي وأدخلته إليه في غرفته بالمارستان، وهو موثق في سلاسل: فقلت له: اخرج، وعد لما كنت عليه من قراءة القرآن وتعليمه. فقال متماجنا تماجن المجانين: وأي قراءة بقيت لي؟ ما بقي في حفظي من القرآن شيء سوى "إذا جاء نصر الله". لا أخفيك أنني ضحكت بصوت عال لم يتوقف إلا بعد قطع مسافة طويلة من الطريق نحو هذا الماجن المجنون الشديد الظرف، القوي الإحالة. ضحكت أمام حزن مرافقي الدمشقي، رغم أنني لا أعرفه إلا منذ سويعة قليلة. فما كان عليه سوى القول: نسأل الله تعالى العافية له ولكل مبتلى. ولما وصلنا إلى المارستان، توجه مرافقي إلى قابض المارستان، ومد مبلغا من المال قدره خمسة عشر دينارا للّيلة الواحدة، فرفض هذا الأخير، وهو يتمتم بعبارات العزاء. لقد توفي الفقيه الهائم بالصبي نصر الله. فرد صديقي الدمشقي: سمح الله له. عاد الرجل الدمشقي من حيث أتى، مستأذنا مني الذهاب لإخبار زوجة وأولاد الفقيه، "شهيد الصبي نصر الله"، كما نطق أمامي بصوت لا يسمع.

بعد أن طار مرافقي كالمجنون خرجت وحيدا من المارستان، الذي وجدته فعلا مفخرة من مفاخر الإسلام في دمشق. منظره جميل، يتوسط باحته صهريج كبير يمتد إليه الماء من ساقية مستطيلة. حار بصري في محاسن المكان. سرت مسافة طويلة وأنا أحاول تذكر الطريق التي جئنا منها معا. هذه هي الجدران التي مررت بها قبل ساعة من الآن. هذه هي الأبنية، وهذا بستان على يميني. هذه هي الجهات. رأيت مجموعة من الرجال ينظرون إليّ وهم يقتربون مني. لا شك أن لباسي المغربي قد أثارهم. فالدمشقيون لهم عادات غريبة عنّا في إكرام الغرباء وإيثار الفقراء. وقيل إن الدمشقي إذا عرض كسرته على فقير ورفضها، يبكي الرجل ويقول: لو علم الله فيّ خيرا لأكل الفقير طعامي. كما أنهم يعظمون الحجّاج، ويطلبون التبرك منهم، ويتهافتون عليهم تهافتا لا نظير له. وقد أخبرني العديد من الحجّاج المغاربة والأندلسيون أن النساء يخرجن للقاء بالحاج ويناولنه الخبز، فإذا عضّ الحاج فيه اختطفنه من يده ويبدأن في أكله تبركا بأكل الحاج له.

أسرعت الخطى حتى لا يظنني الرجال حاجا مغربيا ويفعلون بي ما أنا في غنى عنه. فأنا ناسخ مكلف بمهمة لم أنجز منها لحد الساعة أي شيء، إنني لم أنجح حتى في اللقاء بصاحب التاريخ الكبير. ما يلزمني مجموعة من الأفكار النيرة، ودليل يرشدني في ليالي دمشق، الباردة والدافئة. لو كانت أم العيد معي اليوم،

علـــى هذه الخارطة الغامضة حينا، الجليـــة حينا آخر. فأنا خائف، وخوف الغريب مكثف وشـــديد الوطء، يشعر معه بأنه يرفع رجله من شـــرك ويضعها في فخ. لكن غرفتي هي فخي الرحيم، شركي المريح الذي ينبغي أن أعود إليه عبر أزقة متفرعة، مليئة بالمساجد والمحـــلات التجارية، والزوايا المظلمة التي يحدث فيها دائما ما لا يكـــون منتظرا. لو كنت في بيتي في فاس لدعوت بعض الأصدقاء إلى العشـــاء وتبادل الرأي في الأمور التي تحدث بكثافة من حولنا. وأبقـــى أرقاب بتلك المتعة كل من لا يكف عـــن الثرثرة في أمور متفرعة، بينما شـــخص آخر من المدعويـــن لا يكف عن الضحك والسخرية من غرائب الثرثرة والهفوات التي يقع فيها الثرثار.

7

جنازة الفقيه شهيد الصبي نصر اللـه

وأنا داخل غرفتي سمعت قرّاء يتلون القرآن بأصوات شجية وتلحين مبك. خمس حناجر أو ست لا أكثر. انخلعت نفسي شجوا وحنانا. تارة يرفعون القراءة وتارة يخفضونها. خرجت ووقفت أمام الباب، فإذا بها جنازة صغيرة، قليلة العدد. بضع نسوان وأطفال وثلاثة رجال واحدهم هو صديقي الدمشقي ابن عم الفقيه شهيد الصبي الجميل الوجه "نصر الله". رجعت مسرعا إلى الغرفة لأرتدي برنسي، والتحقت بالجنازة. وضعت يدي على كتف ابن عم الفقيه الشهيد، رفع رأسه وأثقل بحركة من عينيه علامة على الشكر والامتنان.

كانوا يمشون أمام الجنازة المحمولة على كتف شابين متقاربين في العمر والملامح. المشي أمام الجنازة أمر غير مألوف عندنا في المغرب. تلقت أذني القراءة فأدمع جفني. كانوا يذهبون للصلاة على الجنازة في الجامع. للصلاة على رجل قتلته غرائزه المحررة،

ورحل تاركا وراءه جملة ظريفة وشجاعة: "ما بقي في حفظي من القرآن شيء سوى"إذا جاء نصر اللـه"".

السماء مكفهرّة تملؤها الغيوم. ريح باردة بدأت تهب منذرة بعاصفة. أين ذهبت الشمس؟ المطر قادم، إنه يجهز قوته للنزول على أرض طالما انتظرته. القليل من الناس الذين يقفون أمام الأبواب يراقبون الجنازة بدؤوا بالانسحاب إلى داخل الدور. والذين كانوا يمشون في الشارع أسرعوا إلى سور قريب يحتمون به. جماعة عظيمة العدد وقفت عند السور. خُيّل لي للحظة أنهم ينوون محاصرة الجنازة. ضرب أحدهم كلبا ضالا بعصاه فجاء الكلب نحوي وسار معي ومع الدمشقي ابن عم الفقيه الشهيد. نحن الاثنان نسير في الجنازة وثالثنا كلب ضال، دون عدّ الشابان الحاملان للنعش. انصرف الأبناء والزوجة. نزل مطر غزير. وكثر الوحل على الطريق. وبدأنا نشعر بأبداننا وقد امتلأت بمادة ثقيلة. بدأت الخطوات تتثاقل. لولا كثرة الوحل لوصلنا إلى المقبرة في أقل من نصف ساعة. وضع الشبان النعش على الأرض وتقدما وهما ينظفان الطريق من المياه والأوحال. بدأت المياه تسيل في الطرق الأخرى كالأنهار. لم أجد في جسمي النشاط الذي عهدته. رجع الشابان وحملا النعش من جديد. تقدمنا بخطوات سريعة إلى أن وصلنا المقبرة. اشتد البكاء بابن عمه. بقي يجهش على رأسه حتى حدثت به رعشة، وخفت عليه من أن تنتابه الغيبوبة. قمنا بدفنه بسرعة وانصرفنا، لكن قلوبنا بقيت معه.

لم نكتب شيئا على شاهدة قبره، لا اسمه ولا تاريخ مولده وموته. هل هذه هي العادة في دمشق؟ انصرفنا وأنا أكلمه وهو لا يسمعني. هو رجل يحمل هموما في قلبه وثيابا على ظهره. وصلنا إلى بيته، ألح علي كي أدخل معه. جلسنا في غرفة متوسطة الطول. أسند ظهره إلى مخدة ونادى على ولده ليحضر إليه الماء الفاتر المخلوط بالمسحوق الذي أعده يوم أمس. فأحضره له وشرع يتجرعه. شكا من شدة حرارته، فأضاف ولده بعض الماء الفاتر على المشروب، فشكا منه مرة ثانية، فقال بحزم: "أحضر لي ماء صافيا. سبحان اللـه لا يمكن لأحد تعديل الماء".

بعد انصراف الولد نصحته بتناول مقدار صالح من ماء الشعير، فوافقني الرأي لا لأنه يعرف منفعة المشروب بل لأنه قرأ الصدق ونجاعة الدواء على صفحة وجهي. بقيت معه نخوض في محادثات كثيرة عن أحوال المشرق والمغرب حتى مرّ من الليل هزيع. شكرته وانصرفت طيِّب قلبي. وعندما أصبحت عدت لزيارته فأخبرني ولده إنه تعرق كثيرا في الليل حتى أفرط العرق ونفذ في الفرش. قلت إن ذلك دليل استشفاء، فاستأذنته في الدخول إليه فتقدمني إلى الغرفة حيث يرقد. قال لي الفتى إنه لم تكن عادته أن يبقى ممددا إلى ذلك الوقت. رجونا وقوع الخير. بقيت جالسا قربه أرفع عيني عنه لأضعها على الغرفة وما تحتويه، ثم أنقلها من جديد لأتأمل ملامح هذا الرجل الذي وضعه القدر على طريقي.

استيقظ ووضع يده على يدي، فوجئت بيقظته، وقلت له إن النوم شبيه بالموت المؤقت. ابتسم وقال إنه كان في حاجة إلى الراحة بعد يوم أمس. بعد جنازة رجل مات غريبا بعد أن كان خطيبا في مسجد يتحلّق حوله الناس لسماعه وهو يصحّح ويقوّم مقامهم العابر على الأرض. سألته عن موعد يناسبه لزيارة ابن عساكر. قال خير البر عاجله. ثم نهض وعاد للجلوس. روحه أنهكت جسده. الجسد في الستين يُقهر بسرعة. ثم أضاف كأنه قرأ ما يروج في ذهني: ابن عساكر رجل في الستين، أو تعداها بسنة أو سنتين، لكنه يرعى صحته وإيمانه. وضع كتبا عديدة، وتصانيف ممتعة، لكن كتابه الضخم "تاريخ دمشق" هو قمة اجتهاده وإيمانه. فهو في بلده أو في غير بلده يتسوّغ بالعفاف يتبلّغ بالكفاف. لا يرى في منامه غير الله ونبيه صلّى الله عليه وسلّم. كتبه أكثر من أن تُعدّ. وكتبه بخطه شيئا كثيرا. لم يكن يصاحب إلا الوُعّاظ والحُفّاظ مثله. والناس هنا في دمشق وحلب يغالون حتى قالوا: "إن جمعت الكراريس التي كتبها إلى اليوم وحسبت سنوات عمره وهو مازال على قيد الحياة وقسمت الكراريس على المدة فكانت النتيجة أنه كان يكتب في كل يوم تسعة كراريس".

وأضاف بعد زفرة تعب وتعديل في الجلسة: ما قيل عن الحافظ شيء عظيم يقبله العقل إذا نظر العاقل إلى كتابه "التاريخ الكبير"، كتابه عن مدينة دمشق. كما أنه شديد التواضع ولا يقتدي سوى

بالأئمة الفضلاء، حفدة الرسول. كان يعطي دروسا في الجامع ويوصي طلبته بالاحتفاظ بأقلامهم مدى الحياة، ويعطي مثلا بصديقه الذي التقى به في بغداد أبو الفرج ابن الجوزي الذي جمع بُراية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله، فحصل منها عدد كبير، وأوصى أهله أن يسخّنوا بها الماء الذي يغسّل به بعد موته، فكفّت وفضُل منها. عندما ستلقاه ستقض المفاجأة مضجعك، مازال يبدو شابا في عافية جيدة، فكل من سمع به ظنه شيخا عالي السن متطاول الأمد، ومنهم أنا.

سألت الرجل طريح الفراش، المتعطش للعلم والذكريات: نحن نعلم أنه يحب رسول الله، وأنه عالم بالفرائض وأن له أشعارا، لكن من هو شاعره المفضل؟ أجاب بأنه سمعه مرارا يردد سيرة وأشعار شاعر يدعى "الببغاء"، وقد وجد اسمه بخط أبي الفتح ابن جنّي النحوي بفاءين: الففغاء. والببغاء هذا اسمه الحقيقي عبد الواحد.

أضفت متسائلا: وما سبب الإعجاب به؟ قال إنه سمع الحافظ يقول إن شعره أطلق سراح مسجون. وأنه كان يفضل الشعر عن المال، هو القائل عندما دخل على الوزير أبي النصر سابور وقد نثرت عليه دنانير وجواهر:

نثروا الجواهر واللجين وليس لي   شيء عليه سوى المدائح أنثر

بقصائد كالدر إن هي أُنشدت   وثنا إذا ما فاح فهو العنبر

هذا ما كان يردده ابن عساكر، وقد سمعته مرّة بنفسي يردده ويشرحه ويطيل في الشرح. وفي تلك الفترة كان قد عاد من زيارته إلى بغداد.

لنعد إلى حكاية تأليف كتاب "تاريخ دمشق"، قال الرجل المريض، واسمه حسّان، رافعا صوته المنهك، فما أن سمع الملك نور الدين محمود، ملكنا في دمشق وحلب، أن ابن عساكر كان يؤلف كتابا عن دمشق، لكن انشغاله بالتدريس أحجمه عن إتمامه، حتى بعث إليه يحشد همته لإتمامه، وقد سمعنا مؤخرا أنه بعث إليه للاستعانة بخيرة النُسّاخ لنسخ الكتاب الكبير. قلت له: أنا من أجل هذا الغرض جئت إلى دمشق. لكن لابد من اللقاء بحافظ دمشق، الرجل الذي أخذ عن الأفاضل، وأخذوا عنه، وانتفعوا به. تحرّك حسان المريض في فراشه حركة خفيفة وقال: جاء أيضا، ولنفس الغرض، رجل ناسخ من البصرة، لذلك يلقبه الناس هنا بـ"البصري". وهو بارع في فن التجليد، الفن الذي تسمونه أنتم في المغرب "التسفير"، وأهل العراق يسمونه "التصحيف". وهو رجل بارع جدا، على معرفة بابن عساكر، كان قد التقى به في العراق وربطتهما علاقة علم متينة. لقد رأيته في السوق قبل أيام يجول بين حوانيت الجلود والورق وباقي أدوات العمل. رأيته بالضبط واقفا أمام دكان لبيع الشفرات. وقفت وراءه أتطلع إلى ما يقوم به بعد أن لفتتني لهجته العراقية ولباسه الحريري الشفاف. فوجدته يتخير

شفرة من حديد جيد، غير ليّن ولا صلب، ثم يزنه بيده كما لو أنه ميزان. وعندما سأله البائع عن الغرض من وزن الشفرة، أجاب: يجب أن يكون مقدارها في الثقل والخفة على قدر يد الصانع. بقيت أتأمل تلك اليُديّة التي تحمل قطعة الحديد. وتصورت المُويه الذي تحمله عند الوضوء. لكن البصري صغير اليد له براعة كبيرة في النسخ والتجليد وباقي الصنائع المرتبطة بمهنته.

قلت لحسّان إنني سأكون مسرورا لو عرفني عليه. فإذا التقى البصري بالفاسي على أرض أمّ الشّام، ويكون الغرض هو نسخ كتاب ذائع الصيت لمؤرخ ومحدّث منقطع النظير، فإن الضوء سينزل من السماء، والزلزلة سترحل إلى الأراضي الملعونة، وما أكثرها. ضحك الرجل المريض ونهض من مكانه كأن شيئا لم يكن به، مدّ يده وقال لي: اسمي الحقيقي هو سفيان بن القاضي، والناس يلقبونني بحسان لشدة حفظي لشعر حسان بن ثابت. وأنا شديد السرور باللقب.

لم أنتبه إلى أنني لم أسـأله عن اسمه الكامل، الذي هو دليل إلى النسـب. رحبت به صديقا ومعينا على هـذه الأرض المباركة. ثم توجهنا نحو سـوق قريب، واتفقنا على المرور منه إلى مسجد في وسط المدينة سـيصلي فيه ابن عسـاكر. وأنا أمشي جنب سفيان بن القاضي، الرجل الذي مرض فجأة بشـدة، ونهض فجأة بعافية،

اندهشت لعظمة بحر العمران، ولتأنق الصنائع، ومن جملتها صناعة الورّاقين. المدينة شديدة التمدن، ومصانع تصنيع الورق على كل الشّفاه الموجودة في السوق. فالناس هنا مقبلون أشد ما يكون الإقبال على التآليف العلمية والدواوين، وحريصون على تناقل هذه المؤلفات وتداولها.

اقترح سفيان أن نمر على ورّاقة ناسخ يدعى "ابن الهياج". ما أن سمعت الاسم حتى علقت قائلا: أله قرابة بخالد بن الهياج، أوّل من كتب المصاحف في الصدر الأول من الإسلام؟ ابتسم سفيان بمكر وأجاب: لا، لا قرابة له بخالد بن الهياج، ولكن الناس لقّبوه بابن الهياج لأن خطه حسن، كما أنه مثل خالد لا ينسخ سوى المصاحف. وهو في هذه الأيام يبيعها بثمن بخس، بل ويهديها للفقراء أحيانا. لقد توفرت لديه بأعداد كبيرة، والمكتبة بوراقته صغيرة الحجم. لذلك ضاق بها، كما ضاقت به وراقته.

بقي سفيان يذكر أخبارا عن ابن الهياج حتى حسبته سيقول إنه ضمن فريق نسخ كتاب "التاريخ الكبير". لكنه وبدون سابق تقديم قال لي إنه يريدني أن أتعرف على الرجل لأنه خبير في شؤون الورق والكاغد والجلود. كما أنه أمضى فترة طويلة في سمرقند، ومنها جاء بلوعة الورق السمرقندي. وقد جلب معه كمية كبيرة من ذلك الورق. كما أنه نسخ العديد من المصاحف على الكاغد المصري الذي تستخدمونه أنتم في المغرب.

بقيت أنصت لسفيان وهو يتحدث، فبدا لي في لباس جديد، لباس العارف بشؤون النسخ. اقتربت منه أكثر، وقلت له إنني أرغب في التعرف على الرجل. فأشار برأسه موافقا، وأمسك يدي وقادني إليه. ثم قال: الخطة مزدوجة: في البداية أردت التعرف على البصري الناسخ، والآن تريد التعرف على ابن الهياج. وغدا تريد التعرف على كل الدمشقيين، فكلهم لهم ولع وعلم بالنسخ. وفجأة انتبهنا إلى أننا مررنا من أزقة ليست هي المؤدية إلى المسجد الذي يصلي فيه ابن عساكر. وكان الأوان قد فات. دمشق متاهة.

***

وأنا أطيل حبل أيامي في دمشق أحسست أن ميلي إلى الحقيقة بدأ يتزايد. أقبع في زاوية من غرفتي. أشعلت نور سراجي والساعة ما تزال الثالثة. السماء اللعينة مليئة بالغيوم. شعرت أيضا بخوف يتزايد داخلي. بدأت نفسي تتوسط بين ابن عساكر وسفيان بن القاضي. لقد وضعت نفسي في المنتصف. ماذا يعني ذلك؟ الجواب: علي أن أسوي أشيائي، وأرتب مواعيدي. هذا كل شيء. كما علي أن أتخفف من أحزاني بصفتي رجلا وحيدا في بلد غريب عني كل الغرابة. بهذه اليد المرتجفة سأكتب تاريخ هذه المدينة. يد محترقة ستكتب ما خطه الحافظ عن مدينة محترقة. وعلي قبل ذلك تحضير الورق والأقلام والأعصاب. العمل هو تهدئة المشاعر. بل العقل

هو تهدئة المشاعر. السعادة أيضا هي تهدئة المشاعر.

جعلني سفيان ذو الطبع المتقلب أتعرف على رجل من رجال هذه المدينة. مهنته عادية جدا لكن عقله مليء بالمساحات الشاسعة. هو ناسخ المصاحف بن الهياج. لن أنساه أبدا. مررنا عليه في اليوم التالي. تركني معه ورحل إلى قضاء حاجة ملحة عند أرملة ابن عمه الفقيه الشهيد.

لن أنسى معرفة ابن الهياج الغزيرة وصوته الهادئ. كما لن أنسى ركام الجلود الذي كان في ورّاقته. أعترف بأنني في البداية وقفت منه موقف الأغراب، فبقيت محافظا على مسافتي منه. لكنه كان يقرّبها ويختزلها بأعجوبة. كنت أظن أن تعرفي عليه سيكون مأزقا، لأن معرفة الناس بأعداد كبيرة هو مأزق، هو حفرة يرمي نفسه فيها من لا عمل له. فمن خلال استجواب الفرد لنفسه يكتشف أن جل متاعبه تأتيه من الناس. لكن ناسخ المصاحف غيّر فكرتي هذه. هو رجل وضع نفسه في فراغ قاتل داخل عقلي. بدأت زياراتي له تتكرر. وفي حواري معه، كما في حواري مع نفسي، الصوت هو نفسه لا يتغير. والعادة كانت تقتضي أن يحدث تغير ظاهر في الصوت. صوتك مع نفسك ليس هو صوتك مع إنسان آخر.

عرفت الناس يحفظون الحديث والقرآن والشعر. لكنني ما عرفت شخصا يحفظ الرسائل. سمعت كثيرا أن أهل الشام لهم قدرة

أفضل على التذكر. وكنت أقول مع نفســـي إن ذلك مجرد افتراض. لقد سمعت نفس الشـــيء عن المصريين والعراقيين. لكن ليس إلى هذا الحد الذي رأيته عند "ابن الهيّاج" ناسخ الصحف الفريد. ودليلي أنـــه في ليلة زرته في ورّاقته التي يعمل فيها طوال اليوم وينام فيها ليلا، سرد عليّ رسالة من رســـائل الجاحظ التي كانت جوابا على رسالة وجهها إليه ابن الزيات وزير المعتصم يعيب عليه فيها كون كتبه من الورق الصيني، ومن الكاغد الخراســـاني، ويذكر له فيها محاســـن الرقوق. فطلبت من سفيان أن يبحث لي عن تلك الرسالة لأتأكد بنفسي منها، فقد راودني الشك في كون ابن الهياج قد اختلقها اختلاقا.

ما كادت تمرّ بعضة أيام حتى جاءني سفيان بالرسالة. قال الجاحظ: "وما عليك أن تكون كتبي كلها من الورق الصيني ومن الكاغد الخراساني؟ قل لي: لم زينت النسخ في الجلود ولم حثثتني على الأدم وأنت تعلم أن الجلود جافية الحجم، ثقيلة الوزن، إن أصابها الماء بطلت، وإن كان يوم لثق استرخت، ولو لم يكن فيها إلا أنها تبغّض إلى أربابها نزول الغيث وتكره إلى مالكيها الحُيا لكان في ذلك ما كفى ومنع منها، وقد علمت أن الوراق لا يخط في تلك الأيام سطرا ولا يقطع فيها جلدا، وإن نديّت، فضلا على أن تسطر، وفضلا على أن تغرق، استرسلت فامتدت، ومتى جفت لم تعد إلى حالها إلا مع تقبُّض شديد، وتشنج قبيح، وهب أنتن

ريحا وأكثر ثمنا، وأحمل للغش، يُغش الكوفي بالواسطي والواسطي بالبصري وتُعتق لكي يذهب ريحها وينجاب شعرها وهي أكثر عُقدا وعجرا وأكثر خياطا وإسقاطا، والصفرة إليها أسرع، وسرعة انسحاق الخط فيها أعم، ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره لما كفاه حمل بعير...".

كنت أقرأ رسالة الجاحظ الصارمة وأنا أتذكر صوت ابن الهيّاج وحركاته. تذكرته وهو بين الفينة والأخرى ينظر إلى ركام الجلود والورق السمرقندي المتكدس في زوايا وراقته. وهو يرفع رأسه ثم يخفضه لكي يخفي الأفكار والمشاعر الظاهرة في عينيه. ومعرفتي المختصرة في الزمن بابن الهياج هذا، أكدت لي أن كل ما نفعله هو دائما وليد الصدفة. دخولي إلى وراقته، معرفتي بسفيان، زيارتي لابن عمه الفقيه صريع الصبي نصر الله وهو في المارستان، سيري في جنازته... كل شيء غريب عني، كل شيء يحدث بالصدفة. ترى ماذا تخبئ لي الصدفة في الأيام القادمة؟

بدأت أشعر بأن وزني قد ازداد. وبدأت الأوراق تتكدّس في غرفتي. أعجبني كثيرا منظر الجبل القريب من إقامتي. كلمة جبل مبالغ فيها كثيرا. فهو شكل يتوسط الجبل والهضبة. عن هذا الجبل سمعت من الناس من قال إنه سيختفي قريبا، فهناك رجل يحرك الجبال سيأتي ويأخذه إلى مكان آخر إذا رأى أن الجبيل يحد من

طموحه وقوّته. وهو لن يزول بأعمال الحفر، بل سيراه الناس في الليل ولن يجدوه في الصباح. ومكانه سيبني رجل الخوارق هذا بيوتا وأسواقا ومساجد. صدقت ما كان يقال دون شك أو ارتياب. كل شيء ممكن، فالحروب مشتعلة، ودخول الأراضي والخروج منها جار في كل ساعة. والموت أصبح مفردة دارجة على كل لسان.

8

حتى لا أتيه في دمشق

طوال لقائي بناسخ المصاحف وهو يذكر رسائل مخطوطة لم تعرف طريقها إلى القراء. ذكر منها رسائل في بيان المجاز والتشبيه والكناية. وعندما طلبت منه إعطائي الرسالة، قام وأحضر كراسة صغيرة بها رطوبة وتمزيق بأوراقها الأولى. كما أحضر رسالة أدبية أخرى في الأطعمة وكيفية تحضيرها، صاحبها غير مذكور. وهي مكتوبة بخط رديء خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ. وقد برّر عدم قبول نسخ هذه الرسائل لأنها رديئة الخط من جهة، والقراء لن يقبلوا عليها كما يقبلون على المصاحف. فنسخ مثل هذه الرسائل هو عربون إفلاس كامل في نظره. لم أشأ مجادلته في هذا الأمر. فنسخ المصاحف وترك الرسائل الأدبية هو شأن خاص لا دخل لي فيه. فأنا مثلا أميل بكامل متعتي إلى نسخ الرسائل الأدبية على المصاحف. وتزداد متعتي مع الرسائل المجهولة المؤلف، المبتورة، الخالية من التواريخ. وعندما بدأت أضع خاتمة لكلامي وسؤالي استعدادا لوداعه مدّ إلي الرسالتين

وكأنه يتخلص من أوراق زائدة بها أعطاب يخاف أن تنتقل إلى مصاحفه. وعندما انتبهت أن سفيانا بن القاضي ينتظرني أمام باب الوراقة، نهضت بسرعة خارجا من وراقة ناسخ المصاحف وكأنني هارب من حريق. نظر سفيان مباشرة إلى يدي المشغولة بمداعبة أوراق رثة، حالها يدعو إلى الشفقة. قلت له قبل أن يبادر إلى السؤال: هذه هدية ثمينة من ابن الهياج ناسخ المصاحف. مدّ يده وبدأ يقلب صفحاتها مشفقا على أوراقها وحالها. ثم قال: اهتمامه بالمصاحف جعله يهمل رعاية الكراسات الأخرى. وبقي شاردا يقلب الأوراق الضعيفة الحال.

بدأ النهار ينقضي. نهار آخر يذهب وأنا لم ألتق بعد ابن عساكر. بدأت دمشق تبسط أمامي نقطة ضعفها، الناس قريبون من بعض، وبعيدون في نفس الآن. كيف العمل لتقريب الداني؟ التقدم في السن أمر ضار جدا. سفيان لا يتذكر ما التزم به معي. علي أن أذكره طوال الوقت بضرورة اللقاء بابن عساكر من أجل الشروع في العمل. وقد لاحظت أن ضرر السن يتزايد منذ جنازة ابن عمه الفقيه. لقد ازداد هرما في ظرف أسبوع. لم يعد قادرا على النظر وتحليل الأوضاع المحيطة به. أنا واحد من محيطه الجديد، ولا يتذكر ما قاله لي أو ما يفعله معي. فقط نمشي في الدروب والأسواق، ويدخلني إلى وراقة أو اثنتين، ويعرّفني على هذا الناسخ أو ذاك، لكن الفعل الجاد والصارم غائب من سلسلة أفعاله. فقررت الانطلاق وحيدا أبحث

عن الحافظ في جيوب دمشق التي وقعت بسرعة خاطفة في حب دروبها وشوارعها ومساجدها وبيوتها. لكنني لا أنكر خوفي منها، خوف الغريب من الأمكنة الغريبة.

بدأت أحذرها شديد الحذر. ذكر ابن عساكر في الجزء الثالث والعشرون من تاريخه الكبير خبرا عن عبد الواحد بن زيد في شأن الحذر من الدنيا: "... يا محفوظ، يا مستور أعقل في ستر من أنت، فإن كنت لا تعقل فاحذر الدنيا، وإن كنت لا تُحسن أن تحذرها فاجعلها شوكة، وانظر أين تضع رجلك". وأنا جعلت، منذ اليوم، دمشق شوكة على الأرض لأنظر إلى موطئ قدمي. وما حدث للفقيه ابن عم سفيان، بل وما وقع لسفيان نفسه، يدعو المرء إلى الحذر من أم الشام.

قصدت المسجد الأموي فوجدتت سفيان هناك يصلي. جلست بعيدا عنه لأراقب أفعاله وحركاته وعلاقاته من بعيد. كان ملتزقا بالقبلة. سمعته يقول في دعائه: "أستغفرك من كل مقام سوء، ومقعد سوء، ومدخل سوء، ومخرج سوء، وعمل سوء، وقول سوء، ونبز سوء، أستغفرك منه فاغفر لي، وأتوب إليك منه فتب عليّ، وألقي إليك بالسلام قبل أن يكون لزاما". لم أسمع مثل هذا الدعاء في حياتي. وحين أنهى صلاته ودعاءه نهض وأخذ المصحف وبدأ يقرأ. بقيت أراقبه من وراء السارية المنقوشة التي يخرج من جمال نقوشها ضوء نادرا ما رأيت مثله. قمت وسلمت عليه، ومن

مفاجأته نهض وعانقني وقبلني كما يقبل الدمشقيون حاجّا قادما من مكة. رأيتهم يفعلون ذلك بخشوع. لم يسألني سفيان عن سبب هجري له واختفائي في دمشق. فهو رجل مؤدب ولا يمكنه إحراج غريب تائه. سألته أن يعيد علي الدعاء، فأعاده بالترنم الموجود في لهجة الشاميين عموما، ترنم يشبه موسيقى الأجراس والصنوج، وأضاف دون أن أسأله إنه دعاء كان محمد بن واسع يقوله عندما يصلي المغرب. وكان يتعمد إسماعه لمن حوله حتى حفظه الناس وأصبحوا يقولونه في كل صلواتهم وليس في صلاة المغرب فقط.

كنت أسمع ما يقول، ولا أسمعه في نفس الآن. لاحظ هو ذلك من حركات يدي، وكثرة التفاتي يمنة ويسرة، كأني أبحث عن شيء فقدته في دمشق. وأنا فعلا أبحث عن أشياء كثيرة ضائعة مني في دمشق. أشياء كثيرة، وأحيانا لا أستطيع أن أسميها بالكلمات. ضاع مني شيء لم أكن أملكه من قبل، ولا جئت به معي من المغرب. شيء موجود في السماوات وضاع فيها. دمشق كثيرة الجيوب، متعددة المداخل والمخارج. في كل سور باب، في كل مسجد باب، في كل بيت باب. أبواب للدخول وللخروج، ولكنها تُغلق فجأة. فهل غلقت في وجهي أنا فقط؟ سألت سفيان عن هذا الأمر الغامض. فباشر برسم خارطة لدمشق حتى لا أضيع فيها. الأبواب تظهر أنها أبواب، وحين تقترب منها للدخول أو للخروج تجد نفسك أمام وهم أو توهم.

كان سفيان على استعداد لتفسير السماكة القاتلة لدمشق وانغلاقها المخيف الطارئ كما يطرأ مرض على بدن. لم يكن هذا المرض فيها من قبل بل اكتسبته مع الحروب والأشياء الخارقة المدهشة التي تحدث فيها سطحا وعمقا. حدثني في البداية عن المساجد، وقال إنها ألأمن مكان يمكن أن يلجأ إليه غريب أو تائه أو خائف. استغربت كيف يتحدث بتلك اللهجة المنذرة. هل ثمة أشياء قريبة الوقوع؟ أم إنه فقط قلب قلق يتحدث بتدفق وسجية. وأضاف وصفا لحادثة وقعت البارحة كان بطلاها رجلان واحد قرأ القرآن على الثاني فسقط متصلبا ثم مات. زادت غرابتي واقشعر بدني ولم أرغب في مزيد من التفاصيل، بل إني أعترف بأنها كانت المرة الأولى التي أشمئز فيها من كلام سفيان وأخباره التي كنت دائما أتشوق لسماعها. ذلك أن طريقته في الوصف ونقل الخبر مثيرة وشائقة. لكنه هذه المرة كان جافا ومخيفا ومثيرا للرعب. يكفي ذكر صوته المنخفض الذي لا يكاد يُسمع، كأنه ينذر بكارثة وشيكة الوقوع.

حاولت تغيير موضوع حديثنا فسألته عن الحافظ ابن عساكر وعن سبب إلحاحه على تواجد ناسخ مغربي بين مجموعة الناسخين الذين سيعملون تحت إشرافه على نسخ كتاب "التاريخ الكبير"، فأجابني باقتضاب بأنه سمع الحافظ يقول إنه يحب المغاربة لأنهم يقدرون مدينة دمشق كما لو أنها مدينة من مدنهم أو أكثر. وأضاف

إنه سمعه يذكر ذات يوم في المسجد أن "أحد العلماء المغاربة قال: قال قوم من المشرقيين: إن اللـه أسكنه - يعني آدم - بناحية كيكدر من كورة الصين، قال وهي التي تعرف في زماننا بمدينة لغبور. ويقولون: الصين أطيب البلاد، وأما الذي عليه العامة في الشق الغربي أن أطيب البلاد صنعاء من اليمن، ودمشق من الشام، والري من خراسان، ونجران من الحجاز".

أخرج سفيان من جيبه حلوى يسمونها الفالوذج، وهي تُسوى من لبّ الحنطة، وأصلها فارسي، وناولني واحدة، حين تذوقتها طلبت المزيد منها، فأعطاني الثانية وقال:

- الكثير من الناس ينصحونني بعدم الإكثار منها لأنها تقتل، وأنا يقع منزلي عند زقاق الجنائز وما رأيت يوما جنازة أحد قتله الفالوذج.

أجبته دون معرفة بالكلمات التي تخرج من فمي، فأنا مشغول بأنواع أخرى من الموت:

- عندنا في المغرب الكثير من الحلوى التي تتسبب في أمراض كثيرة، ومع ذلك الناس يقبلون عليها.

وأنا أحدثه انتبهت إلى جبهته التي اسودّت من كثرة السجود، ولحيته قد اصفرّت مما كانت عليه حين التقيته قبل مدة من الزمن. لم أشأ السؤال عن سواد جبهته واصفرار لحيته، فالأمور واضحة جلية. سحبته من يده قائلا له أن نحتمي من غيث قادم لأن السماء

كانت قد بدأت تسود من الغيوم، والريح بدأت تتحرك. وأنا أسحبه وجدته ثابتا في مكانه لا يتحرك، فقال:

- أنا أعرف برياح دمشق وغيومها، فإذا رأيت الريح الشرقية قد دامت، والسحاب شاميا، فهيهات ما أبعد غيثها، وإذا رأيت الريح الغربية قد تحركت، ورأيت السحاب مستغدقا فأبشر بالغيث.

أجبته بلهجة حنين فوجئت أنا نفسي بها:

- إني أحس ريح الدبور القادمة من نحو المغرب.

رفعت رأسي فإذا بالريح غير متحركة والسحاب غير مستغدق. أما ريح الدبور فموجودة في القلب والرأس فقط. ودعته وودعني، فكل واحد منا تنتظره أشغال وأعمال وهموم. ربما عاد هو إلى المسجد، وربما أنا ذاهب لأريح بدني المتعب ونفسي المليئة بالغيوم السوداء.

بدأتُ في تلك الأيام أفكر في الخروج من الشام إلى العراق، وأنا جاهل تماما للقسط الأكبر من دواعي هذا التفكير. كتبت في دفتر خاص بي أنني سأجعل طريقي على البرية لأنظر إلى آثار بني أمية، ومصانعهم من الآبار والأبنية والحصون، أي ما سمعت عنه وما قرأته وأنا في فاس. كما سجلت أن علي إعادة مصحف لابن الهياج كان قد سلمه لي لأُصلح فيه ما أستطيع مما لحقه من أضرار، وأذكر أنه نطق باسم صاحبه: "عثمان"؟ الذي خرّق مصحفين لكثرة قراءته فيهما. سأعود لزيارته وتسليمه المصحف

الذي ذهلت لما لحقه من كثرة الاستعمال والنظر. وستبقى حيرتي على حالها: ما بال ابن الهيّاج أحسن الناس وجها رغم إقامته الدائمة في ظلام حانوته؟ وكان سفيان قد أجابني بالتلميح وليس بالتصريح بكون ابن الهياج عندما يكون وحيدا يقرأ القرآن بالتطريب، بل وحتى حين يذهب ليغتسل رغم شحّ الماء، هذا فضلا عن إدامة نظره في المصحف.

كان ابن الهياج هذا ذو نشاط اقتصادي حيوي رغم سريته، فقد علمت من مقربين منه أنه كان يتاجر في ورق لفّ المبيعات، والجهة التي كانت تمول تجارته ترفض الإعلان عن نفسها، لكنها معروفة بأنشطتها الدينية المغالية. لذلك لمحت، كما لمح سفيان، تردد البقالين والباعة على حانوته، ويدّعون أنهم يريدون شراء نسخا من المصحف.

حكى لي سفيان أنه ذات ظهيرة قدم إلى ابن الهياج رجل ليطالبه بدين له عليه قدره مائة دينار، فرفض تسليمه المبلغ ما أن علم أن الرجل قد أضاع وثيقة الدين. ولا يستبعد أن يكون ابن الهياج نفسه هو من كتب وثيقة الدين تلك ما دام هو من يملك الورق. لكن عندما علم ابن الهياج أن الرجل يمر من ضائقة مالية، ذهب إليه فوجده في دهليز داره الذي فيه كتبه، كان الرجل يجلس فيه للنسخ والنظر، إذ كان هو الآخر ناسخا، فسمع دقا على بابه، فلما سأل من الطارق، غير ابن الهياج من صوته وطالبه بإطفاء السراج حتى

يدخل، فدخل وترك جانبه شيئا وانصرف. وعندما أضاء الرجل السراج ونظر وجد منديلا له قيمة وفيه أنواع من الطعام وكاغد فيه خمسمائة دينار. عند سماعي للقصة عرفت لماذا كان وجه ابن الهياج أحسن الناس وجها.

طلبت من ناسخ المصاحف بإلحاح أن يرافقني للقاء بابن عساكر. في هذا الطلب امتلكت صراحة عارية نادرا ما تطاوعني وتصبح ملك يدي ولساني. قلت طلبي وسحبته من يده. عبر عن سعادته بتقديم هذه الخدمة لمغربي قطع مسافات ومسافات للقاء بالحافظ. فما عجز عن القيام به سفيان بن القاضي سيقوم به ابن الهياج. وضع أوراقا وجلودا ومصاحف في أمكنة مختلفة من وراقته. المصاحف في أعلى الأمكنة، والجلود والأوراق والطروس في الأسفل. أغلق باب وراقته ولحق بي في أول الزقاق. لم تكن وراقته تبعد عن زاوية الزقاق إلا بحانوتين. واحد لبيع أدوت النسخ والثاني مغلق منذ وفاة صاحبه، وهو أيضا كان يشتغل بالتسفير والنسخ. بعد المشي لمسافة إثنا عشرة مترا التفت إلى وراقته، وجال ببصره على الزقاق الصامت. ثم توجهنا عبر طريق مختصرة إلى المسجد. ما ان وقفنا على التعبة حتى بادرني ابن الهياج بالقول: "أنظر يا سيدي، ها هو صاحبك العظيم". قلت في نفسي: "شكرا لعيني لأنها رأت الحافظ ابن عساكر".

كان جالســا في مكانه. بين يديه أوراق كثيرة. يجلس جلسة من

يعرف قدر نفسه. أوراق كثيرة سيسوق بها الماء إلى العقول. هذه الطريقة في الجلوس هي فقط لمن قصر حياته على لون واحد، لون التحصيل والدرس والتصنيف والتأليف، مع محاسبة النفس على كل لحظة تذهب في الفراغ. والذين يحيطون به كلهم يقرون بفضله. لذلك تجدهم حوله مقدرين لعظيم قدره. ما رأيت رجلا يجلس هكذا بوقار ورفعة. وما رأيت أناسا يحيطون بجل عالم بهذا القدر والتقدير، وما سمعت من ذاكرة تحفظ ما يحفظ.

بقينا ننتظر زمنا غير يسير ولا قصير. في الحقيقة هو من كان ينتظر حتى يلتحق بقية الطلبة وتمتلئ الصفوف الأمامية التي عهد امتلاؤها بوجوه مألوفة لديه، عزيزة على قلبه وعقله لذكائها وتعطشها للحفظ مثله. تململ رجل بجانبي ومال نحوي وقال: هكذا هو في بيته المعمور بالعلم، فكل من فيه بين حافظ ومحدّث. فروحه السمحة وشخصيته القوية استطاعت أن تفعل في نفوس أبنائه وزوجته المصونة فعل السحر. فابنه القاسم بن علي بن الحسن جمال الإسلام حافظ سار على خطوات أبيه. وزوجته وأم أبنائه عائشة بنت علي بن الخضر شديدة الاهتمام بالحديث. وأبناؤها يسمعون منها كما يسمعون من والدهم. اليوم سنسمع من الحافظ تراجم النساء، وربما سيذكر زوجته بينهن.

أحسست بأنني جنب رجل يعرف الحافظ معرفة جيدة. سيكون دليلي إليه وإلى كتبه وبيته. فأنا داخل تيه دمشق أتعلق بكل من ألقى

في طريقي، ويزداد تعلقي به خصوصا إذا كان عرافا بالحافظ. كان محدثي شابا طويلا حسن الصورة، مليح الشكل، حركاته على الظرف واللُطف مقصورة. يضع عمّة أنيقة اللف، دقيقة الصّف. فأما طول قامته فقد عرفته من طول ركبتيه، وشساعة كفّ يده. سألني: من أين الأخ، لم يسبق أن رأيتك في المسجد تستمع إلى الحافظ؟ أجبته: أنا مغربي من فاس جئت للقاء الحافظ، وأساهم مع مجموعة من النسّاخ في نسخ كتاب "تاريخ دمشق". سألني: كيف تنسخون كتابا لم يكتمل بعد؟ أجبته بسؤال: لماذا لم يكتمل؟ ما الذي ينقصه؟ قال: تنقصه مجلدة أو مجلدتين. لقد لاحظ الحافظ أن تاريخه الكبير الذي أتيت على ذكره تنقصه تراجم النساء الدمشقيات اللواتي عرفن دمشق أو زرنها أو أقمن فيها. لقد انتبه هو بنفسه إلى ذلك دون أن ينبهه أحد. وأضاف بحماس قوي: كيف لمن طرق باب العلم وجعل من كلمة الله هي العليا أن ينسى ذكر أخبار النساء وتراجمهن منذ أقدم الأنبياء والمرسلين إلى عصرنا، كما فعل مع الرجال تماما؟ فكل النساء العظيمات عشن في دمشق أو مررن بها.

تململ الحافظ في جلسته قليلا ليحدث صوتا شبيها بالهمس أو الوشوشة، معلنا عن بداية الدرس. نظر إلي ثم أشاح عني. ثم عاد لينظر إلي من جديد كأنه تعرف على غريب بين الناس. بدأ يتكلم ببطء وتردد وهو ينظر إلى خشب السقف. كان كأنه يتبع صوتا ولا يراه. ثم بدا يسرع في كلامه، لقد بدأ يتبع أصواتا كثيرة. الأسماء التي بدأ ينطق بها تبدأ بحرف الألف.

هذه هي عادتنا أيضا في المغرب، نبدأ بذكر من اسمه أحمد من الرجال، وبمن اسمها "أسماء" من النساء. بقي الحافظ يذكر من أخبار "أسماء" وأسرارها حتى شعرنا بالتعب يتسلّل إلى أجسادنا. ثم انتقل إلى أسماء بنت واثلة بن الأسقع. وعن قوة عبادة واثلة. وعن والدها قال الحافظ إنه يُروى عن ابنته أسماء أنها قالت إنه إذا صلّى الصبح جلس أمام القبلة لا يتكلم حتى تطلع الشمس، وعندما تكلمه في حاجة لا يكلمها. وأضاف الحافظ إن رسول اللـه هو من أمر المسلمين بصلاة الصبح ثم قراءة "قل هو اللـه أحد" مائة مرة قبل أن يتكلّموا، إن ذلك يغفر ذنوب سنة.

مال عليّ جاري وقال إن الحافظ يعطينا أمثلة في الصبر. كنت قد تعبت من الجلوس طيلة ساعات وأنا أنصت للحافظ وهو يقلّب الخبر الواحد على أوجه عدّة. ثم سمعت الحافظ يسرع منتقلا إلى امرأة يقال لها "فكيهة". وهي تعود بنسبها إلى الشاعر امرئ القيس. فما قاله عن أسماء بنت واثلة بحجم صفحة واحدة، لكن أسماء بنت أبي بكر فقال عنها صفحات كثيرة. كان آخر امرأة اسمها أسماء ممن ذكرهن الحافظ، قال إنها كانت في عصر أم الدّرداء.

التلفتُّ ورائي فوجدت صفًا كاملا من الشباب يكتبون ما يمليه الحافظ. الأمر إذن يتعلق بكتاب يمليه الحافظ، كما ذكر لي الرجل الذي يجلس بجانبي. وفجأة سمعنا صوت خطوات خفيض ومحتشم. كان رجل يسير على أصابع قدميه خائفا من إثارة الضوضاء. وكان

الحافظ يستمر في جرد الأسماء والوقائع والأخبار كما لو أنه يقرأ مصنفات غيره. من المنتظر حدوث مثل ذلك، فنحن في مسجد باب الجابية، وهو من أبواب دمشق القديمة. لكن المثير هو أن الرجل جاء وقد فاته ثلث المجلس، ربع المجلس، أو أقلّ أو أكثر. فأعاد عليه الحافظ. لكن الرجل أوقفه طالبا تفسيرا أكثر وتفصيلا أدقّ. فأجابه الحافظ بعد أن كثر عليه ذلك: يا هذا أي شيء بليت به، عليك أن تأتي مع الناس من أول المجلس، لن أعيد عليك شيئا. فقال الرجل: أنا رجل معيل، ولي دكان في قرية "بيت لهيا" بغوطة دمشق، فأنا أذهب لأشتري للدّكان حويجاتها، ثم أغلق وأجيء أعدو. وإن لم أفعل يفوتني معاشي، فقال له الحافظ بعد أن شفق على حاله وقبل منه عذره: لا أراك هنا مرّة أخرى، فحين أنهي قراءتي وإملائي بهذا المجلس آخذ كتبي وأمرّ عليك إلى دكانك بـ"بيت لهيا" وأقرأ عليك ما قرأت على هذا المجلس. فرح الرجل ودُهشت أنا من هذه الأخلاق.

سكت الحافظ لحظة ثم قال: سنتحدث في المرة القادمة عن نساء كان اسمهن "آمنة"، ونزل متجها نحو أحد طلبته. كان الناس لا يقومون إلا إذا قام الحافظ. نهضت وتوجهت نحوه. قبل أن يصل إلى طلبته تحرّك نحوي باسطا يده وكأنه كان مستعدّا للّقاء بي. ثم بادرني بالسؤال: أأنت المغربي القادم إلينا من فاس؟ أجبت: نعم، سيدي. قال: مرحبا. لقد سمعت عنك الكثير من أصدقائي.

واليوم عرفتك من لباســك. انتظرني لحظة، عندي شـــيء لك. بعد إنهاء حديثه جاء إلي رفقة أحد طلبته وقال: هذا ســيريك محاســن دمشــق. قلت: أهي مذكورة في "التاريــخ الكبير"؟ أجاب: نعم، ثم ابتســم. وأضاف ســيصاحبك إلى بيتي في المساء. قلت: أريده أن يصاحبني الآن إلى ثالوث دمشــق المقدس: جبل قاســيون، نهرها بردى وغوطتها.

أحسســت أنني أمام شخص الصداقة معه تبدأ ولا تنتهي. رجل كرّس حياته للكتب. وهذا مجال مشــترك بيني وبينه. سيفيدني في صداقتي وعملي معه. فمنذ ســنين، وأنا في فاس، كنت أرغب في تأليف كتاب أمّحي فيه روحا وجسدا. لم تكن أحلامي تذهب أبعد من ذلك. كنت أطيل النظر في رفوف الكتب التي كانت تملأ مكتبة والدي رحمه اللـه. كان هو أول مــن فهم تلك النظرات التي تخفي رغبة كثيفة. سمعت كثيرا عن العلوم والآداب وأنا في كنف أسرة بسيطة، لكنهــا عريقة. بدأت معرفتي الكثيرة الألــوان تخرج من العمومية والفجاجة إلى التدقيق والتخصص. كنت أرى والدي يستعمل أوراقا مربعة الحجم. بعضها كان مســتطيلا يصلح لنقل ونسخ الأشعار. والمربعة كانت تحتوي على ذاكرة واسعة من الأشعار والأحاديث والأقوال والأســانيد. كثيرا ما قلدته فــي صنيعه هذا. فكان والدي يدرّبني على استعمالها، بل وعلى صناعتها. الفضل يعود له، رحمه

اللـه، في خفة يدي أثناء صناعة تلك الجذاذات.

المهم أن هذه المهارات جميعها ستفيدني في عملي مع الحافظ ابن عساكر. ذلك أيضا لن يكفي. علي أن أكون شخصا سريعا في العمل وفي الاستجابة الفكرية. كما عليّ أن أكون شخصا لمّاحا أيضا. فدمشق مدينة تمرّ من مرحلة صعبة. وعلى اسم اللـه ألا يغادر شفتيّ وقلبي. وعلّي أن أكون حذرا بالقدر الكافي. فأنا مثلا لم أرد على الشخص الذي جلس بجانبي في المسجد ونحن نستمع لأمالي الحافظ حول النساء. فقد شعرت وكأنه سيبدأ في تلفيق الأكاذيب حول الحافظ. فرجل ذائع الشهرة مثله. وواسع المحبة والحب للبشر وللـه، لابد أن يكون له حسّاد يتربصون به، يدكّون ما يبنيه ويشيده. باختصار، على حذري ألا يفرقني صبحا وعشيا. فإذا اختفى في مكان لابد أن يظهر في آخر. دمشق، رغم كل شيء، مدينة غير آمنة. ثم إنني جئت من أجل العلم والمعرفة، وهذا فقط ما ينبغي أن يملأ ذهني ولساني. وأن الحذر وحده هو ما سيسمح بظهور العلم والسلام. ولابد أنني سأشعر أن شيئا ما في الهواء يقاوم ما أنوي القيام به، لكن عليّ أن أمضي في طريقي، مستعينا باللـه عزّ وجلّ، وبأهل الأخلاق والكرم والعلم مثل الحافظ. ولا أشك في أن دمشق تحوي أمثالا له.

من النظرة الأولى، الحافظ يكبرني بعشر سنين. أقول من النظرة الأولى. لابد أيضا أن أقدم نفسي له باعتباري ورّاقا وشخصا يهوى

التأليف فـــي جميع ضروب المعرفة. وأننـــي مغربي من فاس. لا شـــك أنه يعرف فاس معرفة كبيرة. فرغم أنه سافر كثيرا إلى بلدان الشـــرق، ففاس موجودة في كل مكان. كل شـــيء في فاس موجود في بلدان العالم، وكل شي في بلدان العالم موجود في فاس. شخص واحـــد غير موجود في كل البلدان: أمّ العيد. هذا اســـم لا ينتهي، لا تنتهي حروفه. اســـم كان لابد من أن يرنّ في عقلي لأنهي أعمالي. هكذا دائما. سأحكي لأمّ العيد كل شيء، من صغيره إلى كبيره. كل التنوعات في حكاياتي، مهما كانت بسيطة ستفرحها. بل إن أمّ العيد لا تفرح إلا بالأخبار والأحداث البسيطة. وكل شيء ليس فيه تنويع بسيط هو شـــيء فيه حلقة ضائعة. حتى إنني أفكر في ترجيح كفة البســـيط على المركّب، الصغير على الكبير في كل ما سأحكيه لها عن دمشق.

من هنا، من هذه المدينة المليئة بالعدالة والظلم، بالتساوي، سيطلع فجر أيامي. سأعود إلى أم العيد، وإلى فاس، بعد هذه الرحلة التي كان القدر فيها عادلا. لكن القدر يمكن أن يفعل شيئا آخر، فهو يفعل ما يشاء بي وبأمّ العيد، وبالحافظ، وبدمشق، وبفاس، وبـ"التاريخ الكبير". المهم، وهذه نصيحتي لكل من يزور دمشق، أن يكون في سلام مع نفسه. أعرف أنك تكون في سلام مع نفسك حين تتّكئ على مرفقك، وتشرد وأنت تسمع أغنية عذبة ينشدها طائر بين ضلوعك. وحين تنام تحلم بالطائر المطرب يزورك وقد أفرد جناحين من

نور. تشعر بالظل، وتسمع لغة غريبة عذبة وسهلة الفهم رغم أنك تسمعها للمرة الأولى. وحين تستيقظ تجد نفسك واقفا على الأرض وأنت تضحك وتمسك قيثارة وتغني أغنية الطائر الذي رأيت في نومتك. إنك تعزف رغم أنك لم تتعلم العزف يوما.

***

كل شيء بدأ بعبارة الحافظ ونحن واقفان على العتبات الداخلية للمسجد: "انتظرني لحظة، عندي شيء لك". رجع خطوتين إلى الوراء ووضع يدا على الطالب الذي كان يستعد لمصافحته. نظرت مليا وبإعجاب لرجل ظاهر ولامع في مدينة بدت لي منذ أيام وكأنها تحت الأرض. فحملة السلاح من الجهلة والعوام الذين انتشرت أخبار عن جمعهم وترتيبهم حول بعض الدور لحمايتها من أي مكروه.

كنت أنوي مواصلة رسم خوف الناس وبطش الأسياد والجهلة، لكنني أخفقـت. فالمدينة صامتة وليس هناك برهان واحد على هذا الصمـت أكثر من إصرار العديد ممن التقيت بهم على اجتناب كل حديث يجرهم إلى ذكر الحروب، والأسلحة، والكرّ والفرّ. جئت من مكان بعيد لأخط بيدي أجـزاء كتاب ضخم، عديد الأجزاء. لأخط بقلبي ودمي كلمات رجل سـمعت عنه أخبار كثيرة. إن عملي هذا سـيدفعني إلى الانتقال من مجلد إلى آخر. ثم أعود للأوّل لأصحّحه وأزيّن خطوطه وحواشيه. وقد بدأت منذ البارحة أشعر بأنني متأخر

عـن الآخرين في العمل. من هم هـؤلاء الآخرون؟ لا أعرفهم، لا أعرف أسـماء الذين سينسـخون كتاب "تاريخ دمشق". دمشق، آه دمشـق، المدينة التي أصبح هلاكها أسـرع من لـوك تمرة. لكن الناس فيها يُحدّثون، ويتاجرون، ويحاربون، وينسـون، ويعشقون ويغدقون العطاء. مدينة تسـتقبل كل قادم إليها. تستقبل حتى الموت حيـن يطرق أبوابها. عدد كبير من الناس جاؤوا من البصرة. منهم من جاء ضعيفا ثم أصبح قويا ثم من بعد قوته ضعيفا. في دمشـق عدد لا يُحصى من الكتّاب، منهم من يكتب على الأوراق، وهم قلّة، وسوادهم الأعظم كاتبهم وقلمهم لسانهم. فكان ابن عساكر مثالا في الاعتكاف والكتابة والسـهر إلى الصبح حتـى يترك أوراقه وهي سوداء بعد بياض.

دعاني الحافظ ابن عسـاكر إلى بيته. حين استقبلني كان بشوش الوجه، عملا بقولة العرب: "بشاشـة الوجـه أوّل قِرى الضيافة"، وهـذا فخر لي. وتكليف أحد طلبتـه ليصاحبني في جولة إلى جبل قاسـيون وبرَدى والغوطة أمر سيترك في نفسي عظيم الأثر. كان "قاسـيون" أسـطورة في عقلي، والأديرة والقصور الموزعة بين الأحراش والبسـاتين والمقابر رأيتها فـي أحلامي وخيالاتي. وكم بي رغبة لسـلك الطريق الجبلي المؤدي إلى "دمر". كان الطالب حسن الوجه، حسن الاسـم. تذكرت قولة النبي محمد: "إذا أرسلتم إليّ رسـولا فاجعلوه حسن الاسم، حسن الوجه". اسمه "نور الدين

بن ســـماء". وهو أيضا شـــاعر معروف بين أهـــل المدينة. وعليه بِشارة علم ومعرفة. فمن غير المعقول أن يتعامل الحافظ مع رجل جاهل.

ونحن متوجِّهان صوب بيت الحافظ لقينا على طريقنا، في زقاق ضيق لكنه حسن الإضاءة، قِرطاسا على الأرض، انحنى نور الدين ورفعه ثم فتحه فقرأ بصوت مسموع ما كُتب على القِرطاس: "بسم اللـه الرحمن الرحيم"، فأضاف مبتسما بسعادة: "قال النبي صلى اللـه عليه وسلّم: "من رفع قرطاسا من الأرض مكتوبا عليه بسم اللـه الرحمن الرحيم، إجلال للـه، ولاسمه عن أن يدنس، كُتِب عند اللـه من الصِّدِّيقين، وخُفِّف عن والديه العذاب وإن كانا مشرِكين". هنّأت نور الدين، فأضاف: إن أبي في حاجة إلى غُفران اللـه. ثم سألني: جئت سيدي من المغرب كما عرفت من شيخنا الحافظ؟

- نعم يا نور الدين بن ســـماء، اســـمك جميل جـــدا، من منحه إياك؟

- كانت جدتـــي هيفاء، وهي امرأة فصيحـــة، بليغة وميّالة إلى حفظ الأسماء، بارعة في اختيارها. كان الناس يلجؤون إليها لتختار أسماء أولادهم وبناتهم. كما كانت شديدة البراعة في اختيار كلمات القصائد. وكانت أيضا تجيد الغناء، وتكره "الغناء الذي يخرج بين شارب ولحية"، كما قال الرازي.

- فكان عليها إذن أن تنهي حياتها بالطب والفلسفة، كما فعل الرازي.

- لقد كانت شـــخصية قلقة رغم مرحها وطول معاشرتها للنساء والأطفال. إلا أنها كانت تشـــجعني على دراســـة الطب والفلســـفة والتاريخ. شيء آخر كان يجذبني إليها هو حبها لحلوى الـ"برازق"، وهي عبارة عن كعك يعمل مع الســـكر والفســـتق والسمســـم، هل ذقته؟

- لا لم أذق كعك الـ"برازق"، ولكنني سمعت عنه كثيرا نظرا لأن اسمه معرب عن الكلمة الفارسية "برازدة"، كما أنها قريبة من اسم الشاعر الأموي "الفرزدق".

- الفرزدق هو همّام بن غالب التميمي. وقد عُرف بالفرزدق لأن وجهه كان يشـــبه العجين المُختمر. وهو ما تعنيه كلمة "فرزدق"، وهي فارسية: "برازده" وعُرّبت في صيغتين: فرزدق، وبرازق.

راقني كثيرا أن يكون وجه الفرزدق مثل الكعكة، ضحكنا قبل أن يسود صمت انبعث منه هذا السؤال:

- هل زاركم الفرزدق في الشام؟

- نعم، فرغم نشأته بالبصرة فهو لم يستقر فيها، فكان يتنقل بين الكوفة وبلاد الشام، حتى حسبناه شاميا قُحّا.

- كان الفرزدق يخاف من الكوفة، وكان في كل مرّة يشدّ الرحال إليها يُقفل عائدا من هول الأخبار التي يسمعها من الطريق.

- نعم، هناك حادثة مشهورة هي لقاؤه بالحسين بن علي، وسؤاله

عن الكوفة التي كان قادما منها. فقال عبارته الموجزة المشهورة: "قلوب الناس معك وسيوفهم عليك".

- وأنا أجد أن هذه العبارة تصلح على العديد من المدن الشام، حيث السيوف تقطع الرِّقاب، والقلوب تتحسر بضعف.

- أجل، الفرزدق شاعر ذكي ومتسامح. لو كان معنا اليوم لأعتق الكثير من الرقاب. تعرف أنه أكثر إنسانية من جرير. فقد جيء بأسر بيزنطيين أيام خلافة سليمان بن عبد الملك. فجمعهم سليمان وكان معه جرير والفرزدق، فسلّم الخليفة كل واحد من الأسرى لرجل من حاشيته ليتولّى قتله. وطبعا سّلم سيفا لجرير وآخر للفرزدق، فأهوى جرير بسيفه على أسيره فقطع رأسه بضربة واحدة. لكن الفرزدق تعمّد ضرب رأس أسيره ضربة خفيفة لم تقطع رأسه. فشمت به جرير. فردّ الفرزدق:

"لا نقتل الأسرى ولكن نفكّهم".

فتأثر الخليفة سليمان بحكمة الفرزدق وأطلق الأسير. ولا شك أن عواصف الندم قد اجتاحت جريرا.

قطع نور الذين محادثتنا حين وصلنا أمام باب الحافظ. طرق الباب، فيما بقيت أنا على بعد عشرة أذرع منه. خرج الحافظ وهو يبتسم ويفتح ذراعيه استعدادا لعناقي والترحيب بنا. ونحن على العتبة سمعنا أصوات محادثات قادمة من الداخل، فعرفت أن بداخل بيت الحافظ ضيوفا. وأما رنّة لغتهم فهي عراقية بدون شك.

أمسكت بين يدي بعض الأوراق التي زودني بها ابن يونس، صديق ابن عساكر الحميم. قال لي وهو يسلمني الأوراق في السوق، بعد أن اخبرني بانه سيكون موجودا في اللقاء، إن ابن عساكر كان دائما يستشهد بها كحجة في النسخ الرديء، والخط غير المقروء الذي يحول دون تهجي المكتوب، والأسوأ في كل ذلك هو هذيان الناسخ كأنه كان سكرانا وهو ينسخ. وتعليقاته الكثيرة وحواشيه غير المبررة، والأكاذيب التي دسها. لذلك كان ابن عساكر يبحث عن ناسخين اشتهروا بالمروءة واستقامة السيرة. فكيف يقبل المرء إيداع مخطوط كتاب ضخم لمن تعود الكذب والتدليس. فالناسخ مثل الراوي الذي تحدث عنه الآمدي، عليه أن يكون متجنبا "الأكل في السوق، والبول في الشوارع وصحبة الأرذال والإفراط في المزح، ونحو ذلك مما يدل على سرعة الإقدام على الكذب وعدم الاكتراث به". قلت لابن يونس هل ينبغي أن أختفي من الأسواق؟ أنا مستعد. أما البول في الشوارع فأنت تعرف أنني منذ وصولي إلى دمشق أصبت ببرد شديد في مثانتي فأصبحت أحتاط من البول في العراء. أجابني وهو يضحك: ماذا، أأصبحت تضع ذكرك على الحائط؟ أجبته وأنا أضحك عاليا: هل ستحرمون الناسخ من البول أيضا؟ رد عليّ ابن الجنية وهو يضحك: هذا تشريف لك، فإن كان التبول ينتقص من قيمتك كناسخ، فأقلع عنه.

كانت أسعار الكتب تلك الأيام مرتفعة جدا. وهذا العامل كان عائقا

أمام توسع قاعدة المقبلين على شراء الكتب. فالشريحة الهامشية من جمهور القراء مبعدة عن المساهمة في المشهد الفكري. دون أن نتحدث عن فئة النساء اللواتي لا نعرف ماذا كانت تقرأن، ولا متى وكيف.

ابن عساكر، اسم فيه موسيقى وإيقاع قوي. سألني عن كل شيء، كأنه طبيب يبحث عن سبب العلة الغامضة. سألني عن تاريخ ميلادي وسني. قلت له إنني في الثلاثين من العمر. ثم أضاف سؤالا لم يكن متوقعا عن الكتب التي نسختها طيلة ممارستي لمهنة النسخ والوراقة. لكن السؤال الخفي الذي يقبع وراء السؤال الصريح: هل سبق أن نسخت كتابا تاما بأمر من سلطان أو أمير أو رجل نافذ. كما أن هناك أسئلة قابعة وراء أسئلته كلها: ما هي الكتب التي نسخت؟ إلى أي علم ومعرفة تنتمي؟ هل تنتمي إلى الأصول القديمة؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي كان يطرحها ابن عساكر على مجموعة من النساخ كما أخبرني بعد ذلك ابن يونس عندما حكيت له عن انزعاجي من الأسئلة الكثيرة التي طرحها علي الحافظ.

سألني أيضا عن منهجيتي في المقابلة والتصحيح، إلى أن وصل إلى النقطة الهامة التي شدد عليها كثيرا: ميزة السرعة في العمل، إذ كان من بين شروطه نسخ المجلدات الثمانية خلال مدة يسيرة. كان لساني مثقلا بأسئلة كثيرة كنت بدوري أريد طرحها عليه ولم أجرؤ.

نظرت إلى ابن يونس الذي كان يجلس إلى يمينه، طالبا منه بعض التشجيع، لكنه أطرق. فلم يكن أمامي سوى إتباع خطة هجومية لا أعرف من أين أتتني الجرأة لتطبيقها على أرض المعركة الصغيرة التي تواجه فيها ابن عساكر وابن يونس من جهة، وأنا العبد الضعيف من جهة ثانية. ليست حربا بل يمكن تسميتها "لعبة الصبر الكبرى"، انتهت بانتصارنا نحن الثلاثة وتتويجنا على عرش الصبر. فهل وجد فيّ الساعي، ابن عساكر، ما كان يبحث عنه؟

حين انتهى المجلس القصير، وقف ابن عساكر ورافقني إلى الباب، وأوصى ابن يونس بالاعتناء بالضيف المغربي. وضرب لنا موعدا في درس الغد الذي سيلقيه في المسجد الأموي هذه المرة. أدركت أن تفكيري الحقيق في الحافظ بدأ بعد مغادرته، خارج بيته وكلماته. وذلك ما يرسم من جديد دوائر من الأهداف، وتبدأ تجرفني موجات من الرغبة في العمل. إن شخصيته غير المرئية تتفوق على شخصيته المرئية. فهذه الأخيرة بسيطة، وقريبة، لكن الأولى تذهب أبعد من الخرافة.

9

يوم ترك الحجامة



حين وصلت إلى المسجد الأموي متأخرا كنت متعبا من كثرة السير طيلة ليلة الأمس. طوال الليل وأنا أتساءل عن صحة وقوة قراري في هذه الرحلة العملية الخاصة. وخفت من أن يصبح كل شيء ورطة. تذكرت عبد الرحمان الذي تخلى عن مصاحبتي في آخر لحظة، وكيف لاحظت تردده منذ الوهلة الأولى. ربما نفذ عزمه على الذهاب إلى مصر، فهناك أيضا أعمال النسخ والتجارة في الكاغد وصناعته على قدم وساق.

وجدت الحافظ في لحظاته الأخيرة من إملاء كتابه "معجم النسوة". وبعد الانتهاء التحقت به واعتذرت عما فاتني من الدرس. نظر إلى عيني مباشرة وهو صامت، ربما لاحظ ذبولا واحمرارا فيهما. لكنه رأى أيضا، بدون شك، ذلك الوله المكشوف في عمقهما. قال لي إن أبا إسماعيل بن القاسم القالي رحل إلى العراق، ثم إلى الأندلس، وأقام بقرطبة، أيام عبد الرحمان الناصر، وكان ابنه الحكم يحبه ويرعاه، وقد أملى كتابه المشهور "الأمالي والنوادر" في

مسجد قرطبة. أجبته: إن أفضل مكان لإملاء الكتب هو المسجد.

عندما أنهيت جملتي هزّ رأسه في فضاء المسجد. جلت أنا أيضا ببصري، وتوقفتُ عند ما توقفت عنده عيناه. للمسجد محاسن كثيرة لم أر مثلها من قبل، بفضل صناعته المتقنة التي لم أر لها نظير. لما رآني الحافظ أجول ببصري في بهجة المسجد وكماله قال: "هذا ما يصنعه اثنا عشر ألف صانع". وأضفت إلى قوله: "هذا ما يحصل عليه قائدان من صنف خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح".

شعرت أن الحافظ لم يرغب في متابعة التعليق على بناء المسجد، لقد تصورني أقول له: "لقد أمسك خالد بن الوليد بفأس، بعدما تخلى عن سيفه، وهدّم الكنيسة وبنى مكانها هذا المسجد دون رضى الروم". إلا أنني اكتفيت بسؤال أخير: "أين هي الجهة الغربية للمسجد؟"، فأشار بيده إليها. فأضفت: "تلك هي الجهة التي دخل منها أبو عبيدة حاملا سيفه".

كان هذا اللقاء بيني وبينه بمثابة إظهار لثقافة أندلسية مغربية من جهته، وشامية من جهتي. وذلك ربما ما سرّع بالتقارب بيننا.

اليوم هو السبت، والدمشقيون لا يعملون هذا اليوم عملا، إنما يخرجون إلى المنتزهات والأنهار ودوحات الأشجار والبساتين والمياه العذبة الجارية، يقضون نهارهم بها إلى الليل. أما الحافظ

فقد اختار هذا اليوم للتدريس والإملاء لهدوء المدينة، وسكينة أزقتها وخلوها من الازدحام.

ليست ذاكرة الحافظ هي التي تتذكر بل جسده كله. يذكر عناوين الكتب كاملة وليست منقوصة. فنحن كنا نعرف كتاب القالي تحت عنوان "الأمالي". والمؤلف نفسه كنا نعرفه تحت اسم "القالي البغدادي". لكن الحافظ يحفظ الاسم كاملا، والعنوان بكل كلماته. وكان شديد التأكيد على هذا الأمر.

كان يملي كتابه بهدوء، ويتوقف قليلا لإتاحة الفرصة للتأمل والتقييد. لكن مزاجه تغير حين نهض رجل من الحاضرين وتكلم حول كتاب الحافظ "تاريخ دمشق" الذي ألّفه برغبة من نور الدين محمود، فرد الحافظ بأن الجاحظ أيضا ألّف كتاب "الحيوان" وأهداه إلى وزير المعتصم، الكاتب الشاعر محمد بن عبد الملك الزيات. سأله المتدخل: لا، الجاحظ أهداه كتابه "البيان والتبيين" وليس كتاب "الحيوان". فأجابه الحافظ، لا كتاب "الحيوان" أسبق. ففي مرحلة "البيان والتبيين" كان أبو القاسم قد مات. جاء في البيان، وبدأ يتلو من ذاكرته الحفّاظة، الشيء الذي أدهشنا جميعا: "كانت العادة في "كتاب الحيوان" أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار... فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر إن شاء اللـه". ثم إن كتاب

"البيان والتبيين" أهداه الجاحظ للفقيه أحمد بن أبي داود الذي خلف ابن الزيات، في خلافة المتوكل. من أسبق المعتصم أم المتوكل؟ "الحيوان" أسبق ظهورا من "البيان". والغريب أن كلا من ابن الزيات وداود ماتا مفلوجَيْن.

أظهر الحافظ للمتدخل جبروت فكره وعظمة ذاكرته وحدة ذكائه. فما كان من المتدخل إلا أن حمل حذاءه وغادر المسجد. لمحنا ابتسامة الحافظ تلاها عبوسا حادا كان لابد بعده من إنهاء الإملاء. ثم دعانا إلى بيته لإكمال الحديث.

***

كان يوما مشرقا، في سمائه غيوم قليلة متجاورة كأنها تحدّث بعضها. ونحن نتبادل الحديث في بيت الحافظ سمعنا المنادي ينادي: "يا أهل الطاعة، ليكن منكم تركُ الحجامة في هذا اليوم على ذكر. ويا حجّامون، اجعلوا هذا اليوم لنسائكم وغسل ثيابكم".

علّق أحد العراقيين ساخرا، وهو ناسخ من المقربين جدا للحافظ: يوم للحجامة، ويوم لفصد العرق، ويوم لأخذ الدواء. لمن ينادي هذا الرجل، فالحجامون لا يعملون اليوم؟ نظر إليّ الحافظ ثم نقل نظرته سريعا إلى ممر الدار من حيث يقدم أحد أبنائه وهو يحمل صينية عليها ماء وحليب وثمر. فهمت أن الملك يحتجم يوم السبت.

بقيت أنظر لمأوى الخير هذا، الذي كان دائم الانتقال من مكان إلى مكان. بادرت إلى سؤاله: سيدي الحافظ، اعذرني عن السؤال: ما نفع الانتقال من مكان إلى مكان، أنا ترددت على أمكنة كثيرة ولم ألحظ أثرا منعها عليّ؟

ردّد الحافظ كلمة "أثر" مرتين، ورأيتها تتقلّب في عقله وعلى لسانه، ثم أجاب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "أوصى الله تعالى إلى عيسى: أن يا عيسى انتقل من مكان إلى مكان لئلّا تُعرف فتُؤذى، فو عزتي وجلالي لأزوّجنّك ألفي حوراء، ولأولمنّ عليك أربع مئة عام".

بقيت أتابع ما يقال امامي دون أن تتملكني رغبة في إبداء الرأي، فما قاله الحافظ ردّا على سؤالي شغل بالي: فعلا، إن انتقالي من مكان إلى آخر جعلني رجلا مجهولا عند القوم وأبعد عني الأذى. وعلى حين غرَّة خاطبني العراقي الذي اسمه سعدون بن عُتبة: "أيها المغربي الجليل لتستغل إقامتك في دمشق للتأليف في شؤون الوراقة المغربية. ثم توجه إليّ الحافظ بالقول: اشغل نفسك بهذا بتأليف كتاب عن الوراقة المغربية، فأنا أراه سيكون جسرا بيننا وبينكم.

قلت: وماذا عن حصتي من نسخ كتاب "تاريخ دمشق"؟ أجاب: لقد هيأت لك خمسة مجلدات منه، أم تريدني أن أنقص العدد؟ قلت:

سيدي الحافظ، لقد انتقلت من مكان إلى مكان، من فاس إلى دمشق، قادما إليك، ويكفيني أنني أبعدت الأذى عني. زدني ثلاثة مجلدات. وأما الأمر الذي دعاني إليه سعدون فسأفكر وأردّ عليكما، ولو أنني بعيد عن خزانة كتبي وعن جذاذاتي، هذا أمر فكرت فيه قبل اليوم، ووضعت فيه استشهادات ومقتبسات وأسماء كتب وناسخين وورّاقين.

عاد سعدون وعراقي آخر يُدعى "سنان" إلى طرق موضوع الحجامة. فقال سائلا: هل هي حجامة مع حلق القفا أم حلق بدون حجامة؟ قاطعه سعدون بسؤال آخر: وما الخطير في الأمر إلى حد طرح مثل هذا السؤال؟ ردَّ الحافظ بسرعة: لقد نهى رسول الله عن حلق القفا بدون حجامة لأنها مجوسية.

لكن يبدو أن سعدون أراد طرق موضوع آخر ظهر من تلميحاته حين قال: أو ليست عادة مجوسية أن ينادي المنادي في هذه الساعة المتأخرة من اليوم؟ لقد حرَّم مولانا رسول الله أن يأتي الرجل أهله ليلا ويطرق بابهم. والنداء بهذه الطريقة أقبح من الطرق لأن المنادي يكون كأنه يطرق كل الأبواب في لحظة واحدة. فما وجدناه في السنة خير لنا من شيء آخر، إلا اجتهاد الرأي.

صمتُ الحافظ دليل على أن سعدون أخفّ على قلبه. لكن هناك احتراز آخر، فرغم قربه من الدوائر فهو لا يأمنها. أذكر أنه في

محاضرة المسجد الاموي قال عبارة استقاها من حكم أول من أظهر الجور في القضاء في الحكم وهو بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وكان أمير البصرة، احتفظت في ذاكرتي بحادثة احتكام رجلين إليه فمال إلى واحد ضد آخر، وحين استفسره المقضي عليه عن حكمه الجائر وأسبابه، أجابه بلال: "يخبرك عن ذلك باب مُصمَت، وأقيادٌ ثقال، وقيّم اسمه حفص".

من خلال هذا الأمر ظهر الحافظ على أنه معتاد على قبول منع الناس عن القيام بشيء يقوم به الملك أو الأمير في نفس اليوم. يوم ويمر، وسحابة صيف عن قليل تَقَشَّع. أما إذا اعترض أو حرّض الناس في مجالسه ودروسه فإنه يعرف شديد المعرفة أن السحابة لا تَقَشَّع حتى يصيبه منها شؤبوب بَرَد. لقد مُلئَت الأرض خوفا.

عدت إلى الحافظ وطلبت منه أن يحدثني عن مجلداتي الثمانية التي سأنسخها. لكن سعدون تدخل بصوت عال: أكثر من نسيانك أيها المغربي، ألا ترانا نخوض في موضوع آخر، اعقد مجلسا آخر للمجلدات. لكن الحافظ ردّ قائلا: يا سعدون أمامنا شغل كثير، والمغربي مستعجل، وأنا أكثر استعجالا منه.

فكرت في الانصراف من المجلس، لكن الحافظ، وكأنه قرأ أفكاري، أخذ يدي واتجهنا نحو حجرة مجاورة. ثم قال: هذه حجرتك، ستقيم عندي. ما أكرمه. ثم أراني ثمانية مجلدات موضوعة على

خوان صغير، مجلد فوق آخر، كأنهم في عناق أبدي. قلت: شرف كبير لي. سأنقل حوائجي من الفندق إلى هنا. وقبل ذلك سألته: هذه ثمانية مجلدات مهيأة لي أم لغيري، فقد قلت لي إنك ستسلمني خمسة فقط؟ ابتسم وأجاب: لقد خصصت ثمانية مجلدات لعشرة نساخ.

إن الواقف في مركز هذه الغرفة سيسمع، لا شك، ضحكا عاليا يشبه ضحك الأشرار حين يجتمعون ويقلّبون الأفكار السيئة وأخبار الناس. العراقيون أظهروا لهوهم وعبثهم ما أن نهضت أنا والحافظ. ألمح لي الحافظ أن العراقي الكثير التعليق والثرثرة، يقصد سنان، والذي تفوح منه رائحة الصُّنان، وبما أنني كنت قريبا منه وجدته بخر الأنفاس، هو ورّاق سيء السمعة كجميع العراقيين. فهم رغم سمعتهم كوراقين وكثرة ورّاقاتهم وأسواقهم المختصة في بيع الورق، إلا أن خطوطهم بشعة، بل وتكاد لا تُقرأ. وقد لاحظت أن العراقي المسمى سعدون يُكثر من الذهاب إلى المرحاض، هذا إلى أن جل كلامه يشبه الغمغمة والوشوشة غير المفهومة. لكن حركاته ونبرة صوته توحي بأنه رجل مغرور ويكره الآخرين. وأحيانا يرطن باللغة التركية دون داع لذلك. فالتركية بالنسبة للعربية لغة غير معبرة. يضطر المتحدث بها، مع عجزها هذا، إلى مط شفتيه وتحريك عينيه، وأحيانا حتى المؤخرة وكأنه يضرط. وأخبرني الحافظ أيضا، في هذه الهنيهة داخل الحجرة، بأن سنان عاطل عن العمل، وبخيل وعابث بكل شيء. لقد كان يريد أن يقول لي بأن

هذا النوع من الناس يهدر وقته ووقت الآخرين. لكنهم ضيوف، ماذا يعمل؟

أخذت المجلدات الثمانية وخرجنا إلى غرفة الجلوس. مازال سعدون وسنان يتبادلان المزح.

***

لم أكمل الحديث مع الحافظ عن مسألة الإقامة في بيته. ففي دمشق فنادق كثيرة. والدمشقيون كانوا مهتمين جدا ببناء فنادق جديدة. بل إنه في حي من الأحياء القريبة من بيت الحافظ تم بناء فندق حديث. فكرت في اقتراح أمر الإقامة فيه على الحافظ، فذلك أمر جيد؛ أدخل غرفتي وأغلق الباب عليّ وأشتغل بالنسخ. وأي أمر غير ذلك فهو غير مهم.

عرفت بأمر هذا الفندق من نور الدين بن سماء، تلميذ الحافظ الذي رافقني إلى بيته. أشار، حين كنّا نمرّ من الحي، إلى الفندق وأضاف معلومة هي في غاية الأهمية: الفندق الجديد في ملكية امرأة يهودية. كانت اليهوديات شهيرات بامتلاكهن الفنادق، ويُحكى عنهن اهتمامهن بالزبائن. وذلك أمر من صميم ثقافتهن، فهناك قصة يهودية تُروى عن مسافر أصابه مرض في الطريق، فبدأ في البحث عن مأوى، فحُمل إلى فندق تديره يهودية. فعنيت به إلى أن مات ودفنته، لكنها احتفظت بعصاه وحقيبته لتسليمها إلى أهله.

وهذا معناه أن المرأة التي تمتلك فندقا أو تديره كانت محلّ ثقة. قصة رجل غريب ومريض يلجأ إلى فندق تمتلكه يهودية، تعتني به إلى آخر أيامه وتدفنه، فأل نحس جعلني أعرض عن فكرة الإقامة فيه.

ميزة هذا الفندق، حسب نور الدين بن سماء دائما، أنه نقطة التقاء وتبادل بين الناس سواء كانوا من الديانة نفسها أم لا. عكس فنادق أخرى، في دمشق نفسها، سمعت عنها أنها أماكن خارجة عن القانون يعيش فيها المجرمون واللصوص وتُمارس فيها كل أنواع الرذيلة.

حرّ شديد يحرق دمشق، يلتهم المدينة والناس. انتبهت إلى أنني نسيت فاس وأم العيد وبيتي وأصدقائي وأهلي. هل دمشق تنسي الزائر إلى هذه الحدود القصية، وتشغله بها وحدها فقط؟ العراقيون ينسون عراقهم بسرعة ما أن يجتازوا حدوده ويخلفوا براريه وراء ظهورهم. فاس لا تُنسى، وهل تُنسى بغداد بهذه السرعة؟ من يجبر الناس على نسيان بلدانهم وأوطانهم؟ ظلم الحاكم أو أية خصيصة في النفس خفية لكنها فاعلة.

10

فارس حمّاد يطالب بحقه في "ذم قرناء السوء"

"كسبت في الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية، وكنت أشتري كاغدا بخمسة دراهم، فأكتب فيه ديوان المتنبي في ثلاث ليالي، وأبيعه بمائتي درهم، وأقله بمائة وخمسين درهما."

الحسن بن شهاب العكبري



في تلك الأيام، كان الوراقون قد خزّنوا كتاب ابن عساكر "ذم قرناء السوء"، وهو المجلس الثالث والخمسون من أمالي الحافظ. فأشاعوا في دمشق أنهم لا يخرجونه إلا لمن أراد نسخه له على خمس أوراق بدرهم. فبدأ الناس يدرسون أمر تقديم شكوى للحافظ. تزعم الناس ورّاق مفلس يُدعى فارس حمّاد. ويعرف الناس عن فارس هذا ماضيه المشرف في النسخ. كان يخرج من بيته في وقت العصر إلى سوق الكتب بدمشق فلا يقوم من مجلسه حتى ينسخ كتاب "الفصيح" لأبي العباس ثعلب، ولا يبيعه إلا بنصف دينار يشتري بها مأكلا ومشربا. وكان يرد فارس على زوجته حين تلومه على الأجر الزهيد الذي يتقاضاه فيذكر لها وراقين تفرغوا للإفتاء والوراقة بدون عوض. ومن الأسماء التي كان يرددها إلى درجة أن زوجته حفظتها: ابن وادع، ومحمد بن أحمد الخجندي الدمشقي الشهير عندنا في المغرب. فإذا كان ابن وادع ينسخ ويأخذ أجر ما ينسخ حطة الثمن، فإن ابن الخجندي كان يرفض أن يتقاضى أجرا عما يورقه.

أقنع فارس الناس أن صاحب الكتاب له الحق في تحديد سعر النسخ. وإذا رفض الوراقون تدخل الحافظ فسيقنعه فارس بأن يملي عليهم الكتاب في بيته أو في المسجد، أو يستضيفونه في بيوتهم كل خميس بالدور للإملاء. كان فارس، ناسخ كتاب "الفصيح"، مرتاح البال من ناحية موقف ابن عساكر. المهم هو أن تصله الشكوى، وهو سيتصرف، بل وسيضيف ما سيُثلج الصدر.

يسكن حمّاد الناسخ قرب نخلة، في بيت عتيق ومعزول. بيت أظلمت عنده آلة الزمن. في الدخول والخروج يشم النخلة، إلى درجة أنه أصبح يُعرف بـ"مجنون النخلة". بجوار بيته شجرة برتقال حلوة يجلس في ظلها حين يُظلم الزمن في قلبه، وتبدو له المياه غير جارية. يجلس في كل وقت، وحين يحل الظلام يبقى تحتها يصغي لأنفاس الليل، وينتظر الفجر المذهب. يبقى هناك يحلم بأيام هادئة ورتيبة. لقد أصبحت الشجرة هي بيته وسريره وزوجته. نسخ العديد من الكتب تحت فيئها، وكان يُخيّل إليه أن الحبر ينزل من برتقالها إلى أقلامه وأوراقه. شجرة مباركة، قلبها أبيض مثل قلبه، وأغصانها حرة مثل يديه. شجرة من كل المعادن، من الذهب والفضة. شجرة من هواء الجنة أتت معطرة وحلوة المذاق. لكنها أيضا شجرة خائفة حين يتركها فارس حمّاد لعزلتها ولنذير بالنائبة لا يعرف، كما لا تعرف هي، مصدره.

ذات ليلة قام فارس من تحت الشجرة وبدأ يناجيها، ثم عانقها

لمدة طويلة، وهو يتحرك تحتها. وفي الصباح شاع في السوق خبر أن فارس حمّاد يزني مع شجرة البرتقال. حين بلغه الخبر شعر بالأرض تهتز تحته. تمزق من الداخل، وبدأ يبحث عن مُشيع الخبر. لا شك أنه أحد جيرانه، أو بصّاص يجمع أخبار الناس ليسيء إليهم، ويجعل قوتهم تتبخر والموت يدنو منهم. إنه زمن الموت الداني من كل مخلوق. زمن دمشق المنهارة التي لا تنتظر العزاء إلا من اللـه.

عن هذه المصائب والإساءات كان فارس يريد اللقاء بالحافظ، ليشتكي أمره إليه ويملي عليه رأيا سديدا. لكن ها هي الفرصة قد أتت. سيشتكي إليه أمورا خاصة به، وأمرا عاما يهم كل الناس: نسخ الكتب بأقل سعر، وعدم خزن الكتب من قبل الوراقين بهدف الرفع من نسخ أوراقها.

كان فارس يقارن نفسه دائما بابن عميرة: "هل أنا ابن عميرة حتى أنال من الوراقة مالا كثيرا؟". وقد جاء على ذكر هذا الناسخ أمام الحافظ حين استقبله رفقة وفد من الرجال الذين اشتكوا من غلاء ثمن نسخ كتاب "ذم قرناء السوء".

أضاف فارس إل ابن عميرة اسما آخر كان قد اغتنى من النسخ هو "أبان بن عبد الحميد" الذي نسخ كتاب "كليلة ودمنة" ليحيى بن خالد البرمكي. استفسر الحافظ عن الاثنين فأفاض فارس في

التعريف بهما منشأ وخلقا وثقافة ورفقة. قبل أن ينتقل إلى الموضوع الذي جاء من أجله رفقة مجموعة من الناقمين على أثمنة النسخ التي بدأت ترتفع في السوق دون حجة دامغة، فالورق مازال ثمنه كما كان، والحبر والأقلام كذلك، فما الذي وقع لهؤلاء "المرتزقة"، هكذا سماهم فارس أمام الحافظ.

لكن الحافظ استغل هذا المجلس لطرح العديد من الأسئلة على فارس حول عالم النسخ والنساخ ومنطقهم وأجورهم، حتى أصبحت على وشك الاقتناع بأنه سيضمه إلى الفريق الذي سيتولى نسخ أجزاء "تاريخ دمشق". حضر اللقاء تلميذ الحافظ نور الدين وسفيان بن القاضي الذي تحسنت صحته كثيرا، والعراقي سنان، الذي سأعرف أنه أيضا ناسخ ترك مهنته لأسباب تقترب من الأسباب التي دفعت فارس إلى ترك الوراقة. سأل الحافظ فارسا:

- ما سبب اختلاف أسعار النسخ وأجور الناسخين يا فارس؟

- الأجور الباهظة سيدي الحافظ لم تكن تُمنح للوراقين من عامة الناس، مثلي أنا أو مثل سنان حين كان يمارس الوراقة في بغداد. الأجور المرتفعة كان يهبها أولو الأمر وأصحاب النفوذ. فمرة وهب يحيى بن خالد البرمكي عشرة آلاف دينار لأبان بن عبد الحميد على نسخة من كتاب "كليلة ودمنة"، ومرة منح ابن إسحق الكاتب البغدادي وراقا له ألف دينار، هذا في حين تقاضى وراقون

نسخوا كتاب "المعاني" للفراء درهما على كل عشر ورقات، وكان أبو زيد السيرافي يتقاضى درهما واحدا على كل ورقة ينسخها.

- سمعت أن كتاب "ذم رفقاء السوء" يُنسخ بأجر درهم لكل خمس ورقات.

- نعم، هذا إضافة إلى تخزينه واحتكاره. ولهذا جئنا إليك لتحديد سعر نسخه.

- هل حددتم السعر؟

- نعم، لقد حددناه في السعر الذي كان ينسخ به كتاب الفراء "المعاني"؛ درهم واحد لكل عشر ورقات. وإن رفضوا هذا السعر، فنحن نطمع في أن نجتمع بك في مكان وتمليه علينا. فنحن من عامة الناس ولا ندفع إلا أجرا معقولا في نسخ الكتاب، أو أوراق منه. وكتابك له أهمية كبرى، ويقبل عليه الناس، ربما هذا ما دفع بهؤلاء إلى رفع ثمن نسخه. ونحن جئنا لننتفع بك، وكل ما صنعته ليس للناس به من حاجة ما بهم إلى هذا الكتاب.

- هل تعرف أسماء من خزنوا كتابي؟

- نعم، كبيرهم يدعى أبو الفضل الوراق.

- هل هو ناسخ حسن الخط جيد الضبط والصدق والأمانة في النسخ والنقل؟

- نعم، حسن الخط، جيد الضبط، أمين في النسخ والنقل، لكنه سيء الطباع، فهو يستغل حاجة الناس إلى الكتاب، فيخزنه ويرفع من أجر نسخه. وهذا ما سيحد من انتشار الكتاب وإقبال الناس عليه.

- ما رأيك في استدعائه غدا لنجتمع ونتدارس الأمر جميعا، والله وافر الخير والعطاء.

- سآتي غدا ومعي أبو الفضل.

***

كنا جميعا، أنا وسفيان بن القاضي وسنان وتلميذ الحافظ نور الدين بن سماء، نراقب تلك اللحظات التي كان فيها قلب الحافظ يخفق وأفكاره تختلط، وكنت أنا أتخيل هذا العقل المجنون الذي اسمه "أبو الفضل الوراق"، وماذا يفعل بالناس والكتب. انتبهت أيضا إلى أن فارس لم يخفض صوتا أو رفعه، ومرافقوه خولوا له تمثيلهم في هذه المهمة. كانوا فقط يكتفون بالإيماء برؤوسهم حين يوافقون على طلب قدمه فارس أو استجابة صدرت عن الحافظ. لكنهم كانوا يتوجعون إلى حد كبير. فالكتاب في السوق ولا يبلغونه إلى بمشيئة صاحب الفضل هذا.

في يوم غد مررت على بيت الحافظ للحضور إلى اللقاء الذي سيحضره أبو الفضل وفارس وأنا والعراقي سنان، الذي لا أعرف

أين اختبأ لسانه في لقاء البارحة. كان حزينا ويعاني ألما في الرأس، وكان يسمع الكلام صراخا. لذلك كان يذهب ويعود من غرفة إلى أخرى. ما الذي يبكيه في خفوت؟ أما ابن سماء فقد بدا مثل طفل خاب ظنه لما سمع بما يقع في سوق الورّاقين. وما كان الجميع يشتركون فيه هو أنهم أصبحوا أشد جوعا قبل انتهاء الحكاية.

لما دخلت بيت الحافظ وجدت أبا الفضل في باحة البيت. فتح لي الباب بعد طرقتين وعاد إلى جلوسه في الباحة. وجهه مصبوغ بالعرق، جاء مرفقا بثلاثة رجال من معاونيه في النسخ. يتفوق عليهم في مظهره الخارجي وكذلك في قدراته الفكرية، وفي الخبرة الطويلة. بل إن المرء، دون عناء، يجده من الصنف الذي يجد صعوبة في معارضة أفكاره. بادرني بالسؤال:

- أأنت المغربي ضيف الحافظ؟ لقد سمعت عنك في السوق.

- نعم، وأنا أيضا سمعت عنك الشيء الكثير.

جملة "سمعت عنك الشيء الكثير" دفعته إلى التململ في جلسته، والاستعداد لتغيير الحديث. وهي جملة مخيفة، لو خاطبني قائلا: "أأنت المغربي؟ لقد سمعت عنك الشيء الكثير" لأحسست بنفس الاضطراب الذي أحس به. كما إنها جملة تجعل الفضول يتضاءل، والنفس تتكمش. هذا الحديث بيني وبينه أكد لي أنه رجل مسالم، ذكي ولا يهدر طاقته. كما لاحظت أنه وهو يحدثني كان يتطلع

إلى الجهة التي سيقدم منها الحافظ. أما مرافقوه فهم مدركون تماما أن ليس ثمة دورا يلعبونه في هذا اللقاء. أحدهم مصري جاء إلى الشام للعمل في النسخ. من الصعب فهمه بسبب لغته، ثيابه شاحبة وصوته مضطرب. لذلك فضل الصمت، إلا من كلمات وجمل المجاملات الأولى في بداية اللقاء. له اسم يوحي بالنضج: عبد العلي. نظرت إلى أصابع يده، كانت في وضعية الإمساك بالقلم. ولون بشرته يؤكد أنه من أهل الريف. وأهل الريف في مصر كانوا يبحثون عن الأكفان القديمة، يتخذون ثيابا لهم مما وجدوه متماسكا من الثوب، أو يبيعونه للوراقين ليصنعون منه ورق العطارين. والأكفان المصرية كانت تُصنع من الكتان والقطن وخرق القنب. ولعل هذا هو الحدث الهام الذي تميزت به مصر: صناعة الورق من الكتان، بعدما كان الورق الصيني يصنع من ورق التوت ومن الغاب الهندي. سألت عبد العلي:

- كيف هي أثمان الورق والكاغد في مصر، لقد سمعت أنها باهظة الثمن.

- نعم، والسبب هو استيرادها من سمرقند. وأنت تعرف جودة ورق سمرقند الذي لا نظير له. لكن الورق المصنوع بمصر ثمنه في متناول الجميع، وقد بدأ الوراقون يتعاطونه بكثرة بسبب جودته وثمنه المعتدل. لقد ولى زمن ما وراء النهر. ففي بلاد الإسلام بدائل

كثيرة. خصوصا عندما أقام الوزير الفضل بن يحيى البرمكي، في عهد الرشيد، الصناعة الأولى للورق في بغداد.

- نعم قرأت ذلك عند الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد". والمقريزي أيضا يؤكد أن ابن يحيى البرمكي هو أول من أدخل الورق ليداوله الناس، بعدما كانت تُستعمل الكتابة على الجلود في دفاتر الدواوين. ومنذ ذلك الوقت بلغت صناعة الورق والكاغد ما شاءت.

- إنها فطنة من ابن يحيى، فالكتابة على الورق لا تقبل التزوير مثل الكتابة على الجلود التي تقبل الكتابة والمحو والإعادة. أما الورق فإن كُشط ظهر كشطه.

ونحن نقلّب تواريخ وجغرافيات الورق والكاغد، قدم الحافظ من الجهة التي كان يتطلع إليها الوراق المصري عبد العلي. لاحظ الحافظ استغراقنا في التفكير وانسجامنا الظاهر. وهو أمر ظهر أنه أسعده كثيرا، فهذه هي بداية الطريق نحو تكوين فريق منسجم لنسخ "التاريخ الكبير". في تلك اللحظة أحسست أن هذا الجمع سيستمر إلى وقت طلوع الشمس. فالحافظ يؤجل البدء في إيجادا حل بين الناس وبين من ينسخون كتابه "ذم قرناء السوء" إلى حين وصول الوفد الذي يمثله فارس حمّاد، الذي تأخر في المجيء. إضافة إلى انتظار العراقي سنان، الذي يعتبر الحافظ وجوده ضروريا.

بعد انتظار طويل قرر الحافظ تأجيل اللقاء إلى موعد آخر، وتمنى أن يكون سبب تغيب الجميع عن الحضور سبب خير وليس سبب شؤم. عدت إلى الفندق بعد تخلف فارس حمّاد ووفده عن الحضور. قال أبو الفضل إنه لا يمكن الانتظار أكثر من ذلك، والخروج في ليل دمشق الذي لم يعد يؤتمن. فالناس قُتلوا في الطرقات والأزقة وحتى في البساتين التي يختبئ فيها المجانين وفاقدي الإيمان. وكان ذلك إعلانا عن الاستمرار في نسخ الكتاب مع الحفاظ على نفس السعر: درهم لكل خمس ورقات. إنها محاولة فاشلة في تسوية هدنة مع الحظ.

الهدنة هذا ما تحتاجه دمشق هذه الأيام. فقد ترددت أخبار كثيرة يتوقف لها خفقان القلب، خصوصا من جهة العراق؛ فهل مدن الشرق ستُمحى كأنها حبر على جلود الأبقار؟ سلطان يقتل أميرا لأسباب نسبت إليه، لكن القاتل برر جريمته بأنها مكافأة من الله تعالى له. كما ورد، من ناحية العراق دائما، أن قاضي قضاة يقال له أبا سعد، معروف بزين الإسلام، وهو قافل من ناحية خراسان بجواب لسلطانه، نزل بجامع همذان، فوثب عليه على حين غفلة منه، قوم ضربوه بالسكاكين، فقتلوه وهربوا في الحال، ولم يظهر لهم خبر ولا بان منهم أثر. في مثل هذه الجرائم لا يجرؤ أحد على متابعة المجرمين للخوف منهم. فيكتفي الناس بتشييع جنازة الشهيد

الذاهب إلى رحمة اللـه، فالقضاء نازل لا يُدفع، والقدر حالٌ لا يُمانع.

جاء إلى السوق رجال من مدينة صور بعد أسبوع من مقتل زين الإسلام. كان قد شاع عن ثغر صور تحكم ناس ضعفاء النفوس في تسييرها، لا طاقة لهم على ردّ الطامعين فيها من الإفرنج. ففيها القليل من الجند، ومن يقيم فيها من الرجال لا كفاية لهم ولا شهامة. فكان أمر مضايقتها وحصارها من الحوادث المؤلمة. والرجال الذين قدموا إلى دمشق، بعد تسليم صور إلى الإفرنج رغم مكاتبة مصر من قبل الشام لاستدعاء المعونة، هم من الفارين رفقة عائلاتهم، إذ قد تقررت الحال على تسليم صور، بحيث يؤمن كل من بها، ويخرج من أراد الخروج من العسكر والرعية، ويقيم من أراد الإقامة.

كنت في السوق صباح ليلة اللقاء الذي لم يُكتب له أن يتم في بيت الحافظ بين فارس وأبو الفضل. وقد شغلني كثيرا الحزن الذي بدا على الحافظ. فقد ظهر غير مهتم لأمر التفاوض على سعر نسخ كتابه "ذم قرناء السوء". فماذا يساوي ذلك أمام سقوط مدن الشام. ولما سمعت الخبر الوارد من أفواه رجال عاشوا الأحداث، استصغرت أنا نفسي أمر سعر نسخ ورقة واحدة، بل صغر في

عيني أمرا كان عظيما، ومن أجله جئت من فاس إلى أم الشام، ألا وهو المساهمة في نسخ كتاب "تاريخ دمشق". فأي تاريخ أنسخ فيما المدن والبلدات تُمحى كأنها حبر مكتوب على جلود الأبقار.

في تلك السنة كثرت مراسلات الاستغاثة الموجهة إلى مصر والعراق. لا أخفي أنني خفت من وصول الأمر المكروه إلى دمشق أو حلب. ووجدت نفسي في حال شبيهة بالرجال الفارين من صور، أشكو الحال وأشرح ما نزل بي وأسأل النجدة والإنقاذ من أيدي الكافرين. بدأت أشعر بضيق في الصدر، وأصرف الاهتمام إلى أخبار حوادث تلك السنة.

وما زاد من ضيق الصدور، هو أنه في هذه الشتوة احتبس الغيث بكل أرض الشام، فبدأ الزرع يتلف، والأسعار ترتفع، ولاحت نذور القحط أكثر البلاد الشامية. وبدأت السوق تتشوق إلى معرفة أخبار المدن والبلدات، إلى أخبار الزرع والضرع والأراضي التي بدأت تموت. إنها حروب الله حين تنزل من السماء وتطلع من الأرض. حروب كل الجهات التي لا جيوش تقهرها ولا سلاح يردها ويثنيها. بدأ الناس يهربون من جيوش القحط وجيوش الإفرنج. يحملون ما خف وزنه ويتركون ما ثقل عليهم. فأحيطت دمشق بحزام من البيوت المبنية على عجل، والخيام المختلفة الأشكال والألوان تقي الحرّ والبرد وتؤمّن السابلة.

بدأت تدخل إلى السوق سلعا رائجة يقبل عليها الناس: أثواب الخيام ومواد البناء الخفيفة التحضير. حتى أن بعض الوراقين تحوّل إلى بيعها وامتهانها عوض الكاغد والحبر والأقلام. وبدأ البناؤون ينتشرون على طول أسوار السوق، وعلى عتبات أبوابه ومساجده. فسدت سلعة الورق، واختفت الكتب والأقلام. فهذه السلع لم تعد مطلوبة، والمقبلين عليها لم يعد لهم وجود. الناس يقدمون من حلب وباقي البلدات والقلاع بحثا عن مواد يبنون بها بيوتا تقيهم حرّ تلك السنة العجفاء. هكذا قلبت الحروب حياة الناس رأسا على عقب. ولم يعد للناس من شغل سوى التضرع إلى اللـه من أجل تدارك عبيده بالرحمة، وينزل الغيث بعد القنوط، ويحيي الأرض بعد موتها، وينقذ الزراعات بعد فوتها، لتطيب النفوس ويزول عنها الهم والبؤس، وتُخفض الأسعار، ويُنقذ الكثير من ضعفاء الناس من الهلاك.

بحثت في السوق عن هارب أو قادم من ثغر صور أو حلب لأسأل عن حال الناس هناك. بداية فكرت في الذهاب إلى البيوت والخيام المنتشرة هنا وهناك من ضاحية دمشق، لكنني تراجعت وضعفت، فالقتل والمضايقات والهلاك منتشر دون سابق. كما أن الحرّ شديد وسيرة الطرق غير حسنة.

عند كل صلاة جمعة بدأت تُتلى على المنابر رسائل منها ما يتحدث عن إيواء الفارين واللاجئين إلى دمشق، ومنها ما يتحدث

عن عزل والي من الولاة، ومنها رسائل لرفع معنويات الناس وشحذ هممهم ودعوتهم إلى المشاركة في ضبط البلد. وفي إحدى الصلوات التقيت رجلا من المغرب يُدعى داوود المغربي، في الخمسين من العمر. كان يحظى باحترام الناس وتقديرهم من مصريين ودمشتيين وحلبيين وصوريين وبصريين ومغاربة. يشتركون كلهم في التعجب من الأحوال التي وصلت إليها البلاد. جرى كلام طويل بيني وبين داوود بعد خطبة الخطيب. وقد شاركني التعجب والحيرة فيما نحن فيه من أحوال مضطربة وأعمال مختلفة. أخبرني أنه نزل ضيفا، قادما من بغداد، على صديق له في دمشق، وهو شاعر أديب ومدبّر ناجح ومُبهر، لكنه، كما أخبرني، مغتمٌّ من الحال الجارية.

أبدى داوود تضايقه من رسائل الاستغاثة واستدعاء المعونة، التي غالبا ما تكون بلا نتيجة. ففي النهاية يدخل الإفرنج ويحتلون المدن والثغور، أو تُسلّم لهم بعد رسائل الملاطفات والمهادنات. هذا إذا لم تصبهم الأمراض وتفتك بهم المجاعات والسنين العجاف. فهو يرى في ذلك ضعفا في النفوس، وقيودا تغلُّ الهمم والعقول.

وأضيفت إلى هذه المحن الأرضية والسماوية، واحدة دينية، لا هي من السماء ولا من الأرض، بل هي من جهات الشيطان أجمع. لقد استفحل الأمر إلى درجة ظهور رجل يُسمّى "برهام" يدعو إلى الباطنية، فعظم خطبه في حلب والشام، يعمل في غاية

الاستتار والاختفاء وتغيير الزيّ واللّباس، يطوف البلاد والمعاقل، ولا يعرف أحد شخصه، باستثناء أتباعه وحوارييه، وهم قلّة لا يتجاوزون العشرين نفرا. وما أخاف الناس أن الملتحقين بمذهبه يتكاثر بأعداد مهولة. وغالبيتهم من الشباب الغافلين عن أهوال الدنيا ومحن البلدان ومصير العباد وتربّص الكافرين بها. جمع "برهام" حوله السفهاء وغوغاء الطّغام والعوام والعاطلين والحشاشين والمجرمين، أغراهم بالباطنية التي بلا باطن ولا لبّ، أغواهم بمحاله وأباطيله، واستمالهم بخدعه وأضاليله. هذا ما وجده الناس، حُكّاما ورعية، مصائب عظيمة ومحنة ضاقت لها صدور الفقهاء، والمتدينين، والعلماء، وأهل السُنّة، وأهل الستر والسلامة من الأخيار المؤمنين. لكن ما يلوم به داوود المغربي هؤلاء أنهم أحجموا عن الكلام فيهم، والشكوى منهم، دفعا لشرهم، وارتقابا لدائرة السوء عليهم، لأنهم مستعدون لقتل من يعاندهم، ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال. فأصبحت المساجد مكانا للاستشهاد وليس للعبادة. مكانا لصيقا بالعلل والموت.

اتصلت أخبار أخرى من جميع النواحي كثيرة وغزيرة مثل المطر المحتجب. كنت في الجامع بعد جولة سريعة في السوق. شُرع في شن غارات على الجهات القريبة من دمشق. تلقى طغام الباطنية أوامر من "برهام" ليعيثوا في أم الشام فسادا، والمضايقة لها، وقطع الطرقات الواردة إليها. فبدأ الدمشقيون يستعدون لِلُقياهم

وصدهم، فرتبوا لمراصدتهم، وطلبوا إغاثة بالرأي من الفقهاء والعلماء.

لكن قضاء اللـه كان قد حدث، لقد قُتل أحد أخيار الناس في المسجد. يُحكى على لسان الناس، حين ذهابي لتقديم العزاء لذويه، أنه كان رحمه اللـه سديد الطريقة، جميل الأفعال، حميد الخلال، مؤثرا للعدل والإنصاف، كثير التدين، محمود المقاصد، محبا للخير وأهله، مكرما للفقهاء والصالحين. لذلك حزن الناس عليه، وأسفوا لفقده على هذه الحال. لقد وُجد وسكين منغرس في صدره قرب منبر الخطيب.

دمشق، يا عظيمة الشأن، أنت ملاك.. قديسة، فلماذا يحدث لك وفيك ذلك؟

تكون الحياة كل شيء، ثم فجأة يصبح الموت كل شيء. فهل ستصبح الحياة كل شيء من بدايته إلى نهايته ذات يوم؟ ثمة شيء يلف دمشق داخله، شيء أسود، مغبرّ، ضيق ولا هواء فيه. لم يعد ممكنا استعادة دمشق القديمة. وربما المقايضة العادلة هي أن نمنح كل شيء، من الروح إلى الجسد، لاستعادة دمشق بمساجدها، وأسواقها، وكنائسها، وأديرتها، وأزقتها، وأناسها، وفقهائها، وعلمائها، وأدبائها. كما علينا قتل كل الأوغاد إلى آخر واحد فيهم. أولئك الذين يجذبهم مغناطيس الفجيعة والموت. سأنخرط، إن

اقتضى الأمر ذلك، مع الدمشقيين في القتال، فأنا لم أعد ناسخا ولا مغربيا من فاس فقط، فأنا، ساعة بعد ساعة، أوسّع من سيادتي، من سيادة نسياني ليبقى كل شيء وراء ظهري كأنه ألوان هاربة. بعدها لن يحدث الموت، بل شيء أكثر دعة، اسم آخر للحياة، تلك هي تضحيتي التي يمكن منحها لأم الشام. فهل جئت إليها لأمضي لحال سبيلي شهيدا؟ للـه عاقبة الأمر، وبيده محتوم النفع والضرّ.

دُهش جميع الناس، ملوكا ورعية، إلى الانتشار السريع لأتباع الباطنية، وإلى شموخ أنف الفرنجة، وفساد رهط من الشاميين أنفسهم، وتملكهم الطمع في تملك المعاقل الإسلامية. كيف اتفقت طغمة "برهام" مع الكفار الخارجيين؟ مع هذا الشموخ والغطرسة قويت هيبة الجهاد والمواجهة المعارضة. هذا ما يصدر عن كل أريب حازم في رأيه لبيب طامع في ضبط البلاد وإعادة أحسن نظام إلى مكانه الذي كان فيه.

لم يكن من الملك نور الدين محمود، رغم مرض ألمّ به، سوى مراسلة أمراء العراق وحكام مصر طلبا للمساعدة والمساندة. وعندما استعاد نشاطه بعد فتور عاد إلى الغرض المأثور، فقام بإلقاء القبض على بعض وزرائه الذي أنكر عليهم العديد من التصرفات والأفعال. والذي استحق منهم القتل طبق فيهم حكم اللـه، وقيل إنه شرب الخمر في قحف رأس أحدهم. لم يكن نور الدين ليقدم على

ذلك لولا فساد وإفساد زواره لبلاده في غفلة منه، وغضهم الطرف عن انتشار دعوة "برهام" الباطلة، وسكوتهم عنه.

في ليلة باردة مثلجة، قصدت بيت الحافظ لأعرف منه حقيقة الأخبار الواردة والأحداث الواقعة والجارية. خصوصا أخبار ضواحي دمشق وحلب، بعد قطع الطرق عن الأولى واستباحة قلعة الثانية. فالأمور بدأت تفسد وتسوء دون سابق.

كان لابد من وضع نفسي، أنا المغربي، في نقطة بعيدة. بعيدة كالذكرى أو الطيور التي كانت تحلق حول أشجار دمشق وتغني على أغصانها. نقطة لها من قوة الرياح الهائمة التي كانت تهتف فوق القمم الخضراء وتُشعر دمشق بنغماتها الشاملة. وها اليوم خارت كل قوة، وبدأت القلوب، الأيدي والجباه تبحث عن شيء ظليل، أو فيه ظل. نحو الماضي يعود إيقاع كل شيء. نحو نقطة بعيدة سلمية ومسالمة. فأين دمشق، والدمشقيون، منها؟ لم نعد نسمع سوى خطوات الزحف الأصم. صرير حديد الغزو العنيد، وباطل طغمة "برهام" الفاسد المفسد الذي جرّ وراءه الدهماء والجاهلين.

لم أعد قادرا على كتابة سطر واحد لأم العيد. رسائل البوح أصبحت أكبر مني. كما أن مهنة الوراقة أصبحت في نظري عديمة الفائدة. وقد كانت كذلك تبدو بنظر أقاربي: مهنة غير مثمرة بما يكفي، ويمكن لمن يزاولها ويمتهنها أن يبقى فقيرا حتى يموت،

والأمثلة كثيرة، فمن الوراقين من بقي دون زواج، ومنهم من بقي فقيرا حتى آخر يوم، ومنهم من مات وحيدا في كوخه. لذلك كانت أم العيد أكثر من مرة تنتحي بي وتقترح عليّ بنبرة جادة "سيكون من الأفضل لو مارست التجارة". لم أجرؤ على الرفض أمامها، لكنني اعتبرت اقتراحها في قرارة نفسي اقتراح شؤم. وها قد جئت إلى دمشق للنسخ وامتهان الوراقة، وجلست إلى جانب أكبر مؤرخ عرفته الشام، فكان كل واحد منّا مفاجأة للآخر: رجل من الشام يلتقي برجل من المغرب. دمشق وفاس في بوتقة من التوأمة النادرة. لكن شؤم المهنة العنيد لاحقني بقسوة. توقف كل شيء فجأة، وبدأ ألمٌ روحيٌّ، لن يخفّ بسرعة، يتسلّل إلى نفسي، بعد قدرة حماسية غير محدودة ولا مسبوقة وصلت حدّ المبالغة.

خيم جناح مظلم من الحزن والكرب على الشام بأكملها، فبدت دمشق، على غير العادة، حزينة، بائسة، كابية. تغير كل شيء، تغيرت الأسواق والأزقة والشوارع والفنادق والبيوت والحدائق. تغير الناس، تغيرت الأعمال والجو والهواء. لم أعد أرى شيئا خارج بوتقتي. أصبحت دمشق مليئة بأناس وأشياء مخيفة ومدهشة. ساد هواء فاسد، عصفت ريح عنيفة. ينبغي أن أذهب. لكن إلى أين؟ لن يغني حذر عن قدر.

***

توجهت إلى بيت الحافظ في وقت مبكر، فتح لي باب الدار وهو في غاية الاندهاش. وجدت سنان جالسا جلسة المستعجل أو الخائف. ولفت انتباهي أنه يتحدث ويدير رأسه كأنه يخفي شيئا ما في وجهه. بعد ذلك لاحظت أنه يُخفي حقيبة صغيرة تحت قدميه. حقيبة سفر جلدية صغيرة ومنتفخة من الجانبين، يبدو أن سنان ملأها بما قلّ وزنه وحجمه. وقد كان ضمن أغراضه أجزاء من كتاب "تاريخ دمشق". قرفص إزاءه، ووضع يدا على يد كأنه يستعد لإلقاء خطاب طويل.

كان يوما ربيعيا مشرقا، من تلك الأيام التي تشرق فيها الشمس بعد صراع طويل مع الغيوم. عندما رفعت بصري رأيت شيئا يتدلى من السقف، وعندما اقتربت منه أكثر وركزت البصر وجدت أنه صُرّة سفر صغيرة مصنوعة من الثوب. كان ابن عساكر يقف تحتها تماما وهو صامت كأنه ينتظر سقوطها فوق رأسه. مال أكثر على حقيبة سنان وأمسكها بيده، ثم حملها وخبأها وراء ظهره في إشارة إلى أنه يمنعه من السفر، أو بتعبير أصح يخاف عليه من السفر عبر الطرقات غير الآمنة. فشخص مثله احترف السفر والترحال لا يمكن أن يحرم الناس من متعة تغير الأمكنة، ولكنه يعمل حسابا كبيرا للأخطار المفاجئة التي يمكن أن تعترض المسافر، وخصوصا في ظروف البطش هذه. وفجأة بدأ يتحدث بما يشبه الهمس:

- لا، ليست هذه هي دمشق، إذا تغيرت دمشق تغيرت الدنيا.

مشى على أطراف أصابعه إلى الغرفة المجاورة، غيّر ملابسه ثم خرج وهو يحمل آنية نحاسية صغيرة يستعملها للوضوء. لقد ذهب ليصلي في غرفة أخرى في عمق الدار. أما سنان فكاد ينام في مكانه من شدة هدوء المكان والتعب الذي تمكن منه. ولولا أن الحافظ عاد وهو يتلو سورا قرآنية بصوت جهير لبقي نائما دون يقظة إلى أن يزول تعبه ويحلم بالطرق وهي مليئة بملاعين الزمان. ثم سأله لما رآه يفتح عينيه بصعوبة:

- أين كنت يا سنان؟

- كنت أبحث عن طرق آمنة توصلني إلى بلدي آمنا. رأيت أحصنة وسروجا كثيرة وسيوفا ودماء.

- هل كنت تمتطي حصانا؟

- نعم، بسرج مذهب وكان يقترب منا فيضانا لولا أن الحصان طار في السماء لجرفنا معه.

ثم التفت إلي وسألني:

- وأنت يا أبا عبد الرحمان، ماذا رأيت؟

- أنا لم أنم منذ أيام، لكنني أرى أشياء كثيرة في يقظتي. لقد أطار الخوف من عيني النوم.

عاد سنان للنوم من جديد. ضحك الحافظ وقال:

- أتركه إنه يستطلع الطرقات، وسيجدها كلها مقطوعة، سيطير على حصانه من دمشق إلى بغداد.

استفاق سنان، وبادره الحافظ بأسئلة كثيرة:

- أين كنت هذه المرة؟

- قرب الريح.

- وأين هي الآن؟

- ذهبت إلى العشب لتحصده من الجذور؟

- وأين هو العشب؟

- يبتعد عنها كلما اقتربت منه.

- وإلى أين يذهب العشب؟

- إلى الرمل والماء.

- وأين كنت أنت؟

- كنت ذاهبا للحرب، متوجها إلى أمكنة تحترق، وأمنع النار من الاقتراب من العشب. العشب يحتمل الماء ولا يحتمل النار.

فراغ من الصمت جعلنا ثلاثتنا نتأمل في ما قيل قبل قليل. النار كلمة صعبة، الرمل والماء والعشب كلمات حديدية رغم

نعومتها. ما الذي يخبئه القدر لنا؟ ما الذي يتربص بنا في الطرقات والمسافات؟

لم يرفع الحافظ ابن عساكر عينيه عن سنان، هذا الذاهب من نار أم الشام إلى نيران على الطرقات. ثم ينقل نظرته إلي، كما لو أنه يفكر في المغربي الذي يجهل طرقات الشام والعراق معا. ثم بادر إلى التعليق:

- مظهرك حسن يا سنان، من يراك بهذه الثياب النظيفة وهذه الحقيبة الصغيرة يهوى السفر في رفقتك، لكنك تأخذ معك هذا المغربي إلى بلد موحش آخر، هل بلغتك أخبار الطغمة التي تمزق الناس والبلاد؟ من عساه يريد الانتقال من نار إلى نار. اقعدا هنا، معي في بيتي، نأكل معا ونشرب معا ونعمل وننسخ ونكتب تاريخا لم يُكتب بعد، ونقاوم ونصلّي، فهذا الظلام سيزول قريبا إن شاء الله.

انحنى سنان على حقيبته فظهرت عظام ظهره من خلال القميص الذي يرتديه، ثم قال:

- هكذا جئت، وهكذا سأغادر. ما حدث لأم الشام أمر غريب ولا أظنها غيمة ستزول قريبا، بل إن هذه الغيمة ستنتقل لتحجب كل السماوات العربية. فهاهي اليوم في بغداد وبعد غد في مصر والأندلس والمغرب.

كان سنان يغير من ملامحه مع نطقه كل كلمة كأنه يُخرج ظلاما في أعماقه المجهولة. بعد ساعة من الزمن، استغرقها نقاش وأسئلة ونهي ونصح وتحذير وخف وأمل، اتفقنا على مغادرتنا دمشق نحو العراق. لم يتكلم سنان عنّي وعن مرافقتي له، وعن الطرق والمسالك التي سنجتاز، بل أنا من كان مصمما على المغادرة الفورية لهذا المكان المشتعل. وهو أمر أثار استغراب الحافظ، إذ كان يلاحظ نموّ رغبتي وطموحي في البقاء معه. وقف في قلب الغرفة، على بعد مسافة متساوية مني ومن سنان، فاتحا ذراعيه، وقلبه، داعيا لنا بالنجاح في مغامرة العبور من دمشق إلى بغداد، موصيا سنان بالعناية بي طوال الرحلة وما بعدها.

11

اجتمعت الأشياء واختارت العراق،
فاخترتُ ما اختارت الأشياء

ولا أتمنّى الشرّ والشرّ تاركي ولكن متى أُحمل على الشرّ أركب

ولست بمفراح إذا الدهر سرّني ولا جازع من صرفه المتقلّ

ثابت بن جابر (تأبّط شرّا)

" أخبرنا الحسن بن علي بن عبد الله المقرئ قال: أنبأنا محمد بن جعفر التميمي الكوفي قال أنبأنا الجلودي - يعني أبا أحمد البصري - قال أنبأنا محمد بن زكويه عن ابن عائشة قال: كتب عمر بن الخطاب إلى كعب الأحبار: اختر لي المنازل. قال: فكتب: يا أمير المؤمنين إنه بلغنا أن الأشياء اجتمعت: فقال السخاء: أريد اليمن. فقال حسن الخلق: أنا معك. وقال الجفاء: أريد الحجاز. فقال الفقر: وأنا معك. وقال البأس: أريد الشام. فقال السيف: وأنا معك. وقال العلم: أريد العراق. فقال العقل: وأنا معك. وقال الغنى: أريد مصر. فقال الذل: وأنا معك. فاختر لنفسك. قال: فلما ورد الكتاب على عمر، قال: فالعراق إذا؛ فالعراق إذا. "

الخطيب البغدادي، " تاريخ بغداد"

" ما دخلت بلدا قطّ إلا عددته سفرا؛ إلا بغداد فإني حين دخلتها عددتها وطنا. "

الشافعي



غادرنا، أنا وسنان، أم الشام دون موافقة الحافظ. ردّد على مسامعنا أحاديث نبوية وأقوالا وأشعارا تفيد أن بغداد، رغم أنها مدينة في بلد سنان، جمعت ما في خبيث البلدان، فيها مال حرام، وسفك للدماء أكثر مما حدث في دمشق. أذكر أنه قال إن النار في أم الشام تخمد، وفي العراق لا تزداد إلا اشتعالا وكأن الزيت منها وفيها. وتلك لم تكن أفكارا طارئة على فكر الحافظ، بل هو دوما يقول إن بغداد قطعة خالصة من بابل لأنها تبلبل بأهلها. لذلك لا يُرى الناس فيها إلا مستعجلون.

نمنا في أحد الفنادق المتوفرة في الطريق. رأيت حلما عاث فيه إجراما وفتكا رجل اسمه السُّفياني قدم من دمشق على رأس خمسة عشر ألفا انتهبوا المدينة ثم توجهوا نحو مكة، وأتوا إلى بغداد فقتلوا ثلثمائة كبش، وبقروا ثلثمائة امرأة. ثم أفقت وأنا أتصبّب عرقا، يبلبلني الخوف والرجفة. قررت أن أعود سواء قبل سنان أم لم يقبل. بعد هذا الحلم المفزع عليّ تغيير طريقي ورسم خارطة

خاصة بي. سنان رجل يقاتل بما لديه، ويرضى بأي مصير ينتظره على الطرقات. ظهر ذلك على شخصيته في دمشق، في المساجد، في البيوتات.

منذ فاس وأنا أتشوّق لرؤية أسواق بغداد، فتلك هي الوجهة الهامة ليس في العراق وحده أو مصر أو الشام، بل في العالم الإسلامي برمته. أسواق بغداد في ذهني وجهة يقصدها كل التجار، مسيحيون ومسلمون، فهي المكان الوحيد الذي يمكنهم أن يحصلوا فيه على امتيازات تجارية. كما أن تجار الورق نشطون جدا. زارنا بعضهم في فاس وحكوا لنا عن سحر تلك الأسواق. وقبل الحكايات هناك وثائق تمنح نفس الاستنتاج. وسحر بغداد التجاري شاخص أيضا في أسواق فاس، فالتجار المغاربة نقلوا روح تلك الأسواق، وأخلاق معاملاتها قصد توفير نفس الامتيازات التجارية التي هناك.

نزلنا بدرزيجان، قرب بغداد. وهي قرية مهملة، لكنها شهيرة لأن الخطيب البغدادي، مؤرخ بغداد، نشأ فيها بعد قدومه من قرية غزية مسقط رأسه، وهي إحدى قرى الحجاز. كنت قد اتفقت مع سنان على أن نذهب إلى بلدته حلوان. وقد وقع اختياري لهذه المدينة لأسباب منها أنها المدينة الوحيدة في العراق القريبة من الجبل، وأكثر ثمارها التين والرمان، وأنا أحبهما. كما أن الثلج يحلو له السقوط بها. سألت سنان عن فندق في حلوان، لكنه كان كارها

لفكرة إقامتي في فندق. غير أنه حوّل وجهة الكلام دون سبب أو دافع ونصحني قائلا: "أنصحك أن تتكلم مع الناس في العراق ببطء ووضوح، عكس ما كنت تفعل في الشام، فقد لاحظت أنك تتحدث بسرعة وبلهجة مغربية مستغلقة، وعجبي من فهم الحافظ لما كنت تقوله له، أما أنا فنصف ما تفوهت به لم أفهم منه شيئا". وأنهى جملته الأخيرة مبتسما، ثم ضاحكا تلك الضحكة التي سمعتها منه أول مرة في بيت الحافظ.

كنت ألاحظ أن سنان كان يلح على النزول في بغداد، ربما لأنها المدينة الوحيدة، إضافة إلى القرى القريبة منها، التي يعرف الطرق والمسالك المؤدية إليها. مثلما كان يلح على الإكثار من العلف والطعام والزاد والأسلحة. لكنني سألته:

- أسلاح في بلاد العقل والعلم؟

- لقد بلغني أن لصوصا هجموا على سوق بغداد وملأوا أيديهم من الصفراء والبيضاء بعدما ترك الناس أمتعتهم وأموالهم.

- إذن، صدق رسول الله حين قال: "تُبنى مدينة بين دجلة ودُجيل وقطربُل والصّراة، تجبي إليها خزائن الأرض وجبابرتها، لهي أسرع ذهابا في الأرض من الوتد الحديد في الأرض الرخوة".

- لا أيها المغربي، كل حديث في مدح بغداد أو ذمها هو كذب.

بغداد هي بغداد، لا تتمنى الشر لكن متى تُحمل عليه تركبه. ذكر المؤرخون أن المنصور أبو جعفر لمّا أراد بناء مدينة على شاطئ دجلة استشار مجموعة من المنجمين، فيهم واحد يدعى نوبخت، لاختيار وقت للبناء، فاختاروا طالع القوس، وهي الدرجة التي كانت الشمس فيها، معتبرين أن ذلك الوقت هو طالع "يدل على كثرة العمارة وطول البقاء واجتماع الناس فيها وسلامتهم عن الأعداء". وأضاف المنجم "نوبخت" للمنصور أن هذه المدينة "لا يتفق بها موت خليفة". فـ سر ذلك الخليفة المنصور. وإذا كان المنصور قد مات حاجّا، والمهدي مات بماسبذان، والمهدي بعيساباد، والرشيد بطوس، فإن المستعصم قتله التّتر بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم بغداد.

شعرت برجفة خوف بعد حديث سنان عن الموت. لقد أراد الدفاع عن بغداد وحمايتها من كل-إشاعة أو ادعاء، لكن دفاعه كان من خلال ذكر الموت. الموت هي الكلمة الوحيدة المخيفة النازلة من السماء مثل طيور جارحة. كلمة قوية ومخيفة.

***

مررت أمام فرن وحمّام وحديقة. الفرن حليف للحمّام، والحديقة غريبة. لكن زهورها التي تبدو كأنها منطلقة نحو السـماء أراحت ناظـري. أبطأت ثم دخلت لأجلس فـي الحديقة التي بدون حليف.

رأيت مثــل هذا الترتيب: حديقــة، حمّام، فرن فــي مدينة ألمرية الإســلامية. أخاف أن تكون معرفتي ببغداد عديمة الفائدة. أنا اليوم في كنف مدينة غريبة، هاربــا، أو لاجئا، رفقة عراقي غريب في بلده، من أم الشــامّ، دمشق التي تنقلب كل معرفة بها إلى جهل، إلى ضد المعرفة التي هي أكثر وأخطر من الجهل.

تحولت مدن الإسلام إلى أسماء جوفاء لا تعبر عن أي مضمون. تُرى ما نفع هذه الحديقة التي أنا جالس فيها غريب ووحيد؟ والعراقي الوحيد الذي يمكن أن يأويني أو يكون دليلي تائه ومحزون. وتلك حالة لا يُلام عليها. فهذه الأرض التي لجأت إليها سالت عليها دماء كثيرة؛ دماء الرافضة وأهل السنة الذين تجالدوا بالسيف وارتكبوا العظائم. دماء الملوك والخلفاء الذين قُتلوا غدرا أو في حرب واقتتال.

وأنا في الحديقة، ويا للمفارقة، أثقلت عليّ الفتن والمصائب التي وقعت هنا حسب ما قرأته في كتب التاريخ، وحسب ما بلغني من حكايات ومرويات. لكن ذلك الهواء الثقيل الذي امتلأت به دنيا هذه المدينة تنذر بشؤم أكبر سيحل بالأرض والعباد. هواء ثقيل وملوث كأن جيشا يحاصرها ويحيط بها من كل الجهات ولا ينتظر سوى لحظة الانقضاض. وللحظة شعرت أن لا سبيل لي للخروج من هنا. نتيجة كل حصار، الذي يُسمّى في الحروب "حصار الاستلام"،

حيث لا تنفع العدة والعدد والعُدد. كل مصيبة تحلُّ بدمشق لا بد أن تُحيق ببغداد.

خرجت من الحديقة واتجهت نحو ما ظننت أنه شمال. سألت ولدا في طريقي عن السوق، فأشار إلى الاتجاه الذي يؤدي إلى "سوق خُضير". وهو سويقة صغيرة تباع فيها الجرار. وهذا السوق في الحقيقة هو عبارة عن تجمع متنوع لسويقات يقع بالقرب منها مسجد قديم. بقيت تائها علني أجد سوقا للورق والوراقين. بالقرب من المسجد رأيت جماعة من الناس، بعدد وفير، بدى أنهم شيعة وأن المسجد أصبح مزارا لهم ومكانا تعظمه أيما تعظيم. وحين سألت أحدهم أجابني بأن الشيعة تزور المسجد لأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلّى فيه.

تابعت الطريق مشيا دون كلل وسط سويقات متعددة الأسماء. ولم أتوقف إلا حين انتبهت إلى وجود ورق وأقلام في مدخل أحد الدكاكين. ها أنا أخيرا في سويقة الورق والوراقين. اقتعدت كرسيا كان في باب الدكان دون استئذان. لكن صاحبه رحّب بي وزاد أن خرج من عمق المكان إلى الباب حاملا معه كرسيا آخر وجلس قربي. قال إنه عرف أنني غريب من ملبسي ولهفتي وشوقي البادي في عينيّ. قلت له إنني مغربي قادم من دمشق رفقة عراقي اسمه سنان. عرفه على التو، وقال إنه مشتاق إلى رؤيته، فالزمن فرّق

بينهما، والمكان تباعد منذ هجر سنان بغداد واستقر بدمشق. قلت إن سنان بين ظهرانينا اليوم، لكنه منذ عودته اختفى.

ونحن نتحدث وصل وفد من الشيعة فسّلموا وخاطبوا الورّاق الذي أنا في ورّاقته باسم "ابن الجعابي". فدفع إليه أحدهم صُرة فيها دراهم. ثم قال له: يا ابن الجعابي إنك قد جمعت أسماء محدثي بغداد وذكرت من قدم إليها، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد وردها فنسألك أن تذكره في كتابك. فنادى ابن الجعابي على غلامه: "هات الكتاب"، فجاء الغلام وفي يده كتاب ضخم، كثير الورق والأحبار، فكتب فيه: "وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، يُقال إنه قدم بغداد". ولما انصرفوا سألت ابن الجعابي: من ذكر هذا الذي ألحقته في كتابك؟ فقال وهو يضحك حتى ظهرت أسنانه وأضراسه، وهي قطعة واحدة: ذكره هؤلاء الذين رأيتهم وانصرفوا. فضحكت معه. ثم أضاف: أنا لم أر أحدا من أهل العلم يثبت أن عليّا دخل بغداد ولا رُوي لنا في ذلك شيء. وها أنت ترى أناسا يزورون مكانا ويعظمونه لأن شخصا زاره وهو لم يزره أبدا. إن ما يحدث في بغداد هذه الأيام، ورغم أنه شر، فهو خير من خير أي موضع آخر. قلت له إنني قادم من دمشق، واستبدلت سريعا كلمة "قادم" بالكلمة المناسبة "هارب". فوجد قولي سندا لقوله. وأضاف: لقد بلغنا أن دمشق أصبحت مكانا مليئا بالشر، وأن خير أمكنتها مساجدها.

أضفت بأن مساجدها هي الأخرى أصبحت أمكنة للقتل، لقد عُثر على جثث أناس أخيار بالعديد من المساجد الدمشقية.

كنت خائفا من بغداد، لكنهم كانوا أكثر خوفا مني.

هذه المدينة ليست دمشق أو فاس أو صنعاء، هذه بغداد. ينبغي أن تتمتع فيها بالجرأة، وأن تتوقف عن الخوف. عليك تقديم الأمثلة في الجسارة. تعرف معنى ذلك؟ ذلك يعني أن تحب أحياءها وعمارتها وبيوتها وناسها، الأحياء والأموات. أن تحب كل ذلك لا أن تخاف منه. كما عليك أن تجهز كذبة لكل قول أو حكاية.

تمت

الرباط، نهاية مايو 2015

المؤلف في سطور

محمود عبد الغني

- من مواليد مدينة خريبكة سنة 1967، شاعر وروائي ومترجم وباحث.

- يعمل أستاذا للأدب الحديث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

المنشورات

في الشعر:

- **حجرة وراء الأرض**، دار توبقال، المغرب، 1997.
- **عودة صانع الكمان**، دار توبقال، المغرب، 2004.
- **كم يبعد دون كيشوت؟**، دار النهضة العربية، بيروت، 2007.
- **أرض الصباح**، دار الجمل، ألمانيا، 2007.
- **عيون لها أصوات**، دار الحرف، المغرب، 2010.
- **نحن النوافذ**، دار توبقال 2012.

في الرواية:

- **الهدية الأخيرة**، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 2012، جائزة المغرب في السرد سنة 2013.

في الدراسات:

- **فن الأنا، دراسة في السيرة الذاتية**، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2008.

- **السند والشهادة**، دراسة في السيرة الذاتية لابن خلدون، منشورات الزمن، المغرب، 2015.

- **من أنت أيها النص؟** دراسات نقدية، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، 2011.

- **تأنيث الاعتراف**، سرد ال"أنا" في الكتابة العربية النسائية الحديثة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2014.

في الترجمة:

- **الكتابات الذاتية، الوظائف والأشكال** - دراسة نقدية - توماس كليرك/ فرنسا. ط1 دار أزمنة/ الأردن. 2005. ط2، دار موجة المغرب، 2006.

- **محمد يحبني** - رواية - ألينا رييس/ فرنسا. ط1 دار أزمة. الأردن 2006. ط2 الهيأة المصرية للكتاب، مصر، 2007.

- **خط ساخن** - رواية - لويس سبولفيدا/ الشيلي. دار أزمنة. الأردن، 2007.

- **على تخوم الكلمات** دراسة في ترجمة الشعر. فيرناند فيرهسن/ بلجيكا، دار أزمنة، 2007.

- **من أنت سيد لوكليزيو؟**، جان إيزين، منشورات دار أزمنة، الأردن، 2008.

- **مثل قصر مفكك** (شعر)، ليونيل راي، دار الغاوون، أمريكا، 2010.

- أنطولوجيا الشعر المغربي: **من حاملي المواسم إلى أيامنا** بتكليف من وزارة الثقافة بالجزائر، 2008.

- **ما لا يدرك** (شعر)، جاك آنصي، اتحاد كتاب العراق، 2012.

- **رحلة أندري جيد إلى شمال إفريقيا**، أندري جيد، دار توبقال للنشر، 2012.

- **مزرعة الحيوان**، جورج أورويل، المركز الثقافي العربي، 2013.

- **شاعر من العالم أجمع**، مختارات شعرية لـ بليز ساندرار، سليكي، طنجة، 2014.

البريد الإلكتروني:

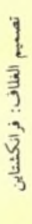
Ramahmoud2002@yahoo.fr



أكتب إليك من دمشق

يتلقّى ناسخ مغربي حسن الخط وواسع الاطلاع، يعيش بمدينة فاس في القرن الثاني عشر الميلادي، دعوة للمشاركة في نسخ جماعي لكتاب "تاريخ دمشق" الذي يقع في ثمانين مجلدًا، سيكون نصيبه منها عشرة مجلدات. أي أن فريق النسخ سيضم ثمانية ناسخين. منذ تلقي الناسخ المغربي لهذه الدعوة وهو يعدّ العدة ماديا ونفسيا: يسأل ويقرأ عن أم الشام، عن ابن عساكر. وهو في غمرة الإعداد يقدم خارطة موسعة لفن النسخ في المغرب.

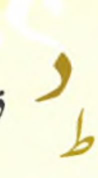
يتقدم السرد، وتتقدم معه أحوال السارد: كيف يهجر زوجته وحبيبته "أم العيد" ويتركها في فاس؟ كيف ستستقبله دمشق؟ كيف سيلتقي الحافظ ابن عساكر؟ من هم النساخ الذين سيشاركونه عملية النسخ الجماعي؟ من خلال الجواب السردي على هذه الأسئلة تقدم الرواية مناخًا معرفيًا وتخييليًا عن دمشق المتخيلة، عن ابن عساكر كما هو مرسوم في ذهنيات المغارب، عن النسخ، عن الفنادق التي سيقيم فيها الناسخ المغربي.



تصميم الغلاف: فرانكشتاين










9 789774 903625